شرح

القواعد الأربع

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار أضواء السلف للنشر والتوزيع

الدار الأثرية للنشر والتوزيع

شرح

القواعد الأربع

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ردمك: 978-9991-934-66-1

رقم الإيداع القانوني: 09/ 2018

الدار الأثرية
للنشر والتوزيع

عنابة / الجزائر

جوال: 00213791317734

dar_elatharia@yahoo.fr

دار أضواء السلف للنشر والتوزيع

الإدارة: ٤٨ ش السلام - أحمد عصمت - عين شمس - القاهرة

المكتبة: ٨١ ش الهدى النبوي - أحمد عرابي - مدينة نصر - القاهرة

هاتف وفاكس: ٠٠٢٢٢٤٩١٢٧٩٥ هاتف محمول: ٠٠٢٠١٠١٠٠١١٤٥

adwaasalaf2007@yahoo.com

شرح

القواعد الأربع

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار أضواء السلف للنشر والتوزيع

الدار الأثرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعتني

الحمد لله الذي بنعمته اهتدىٰ المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلىٰ آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلىٰ هديه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة، ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة،

والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين، وتتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلىٰ حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[(١)].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب: الشرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَي الذَّنبِ أَعظَمُ عِندَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهوَ خَلَقَكَ**»[(٢)].

وهو أكبر الكبائر: عَن عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ أَبِي بَكرَةَ، عَن أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُم بِأَكبَرِ الكَبَائِرِ؟** -ثَلَاثًا-. قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: **الإِشرَاكُ بِاللهِ...**»[(٣)].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه علىٰ نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السنَّة في هذا الموضوع بين مطوَّل ومختصر، ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فشمَّر عن ساعد جدِّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلىٰ ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك،

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقَّ، ويرشد إلىٰ الهدىٰ والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[١].

وقد كتب رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من الكتب والرسائل نُصحًا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرًا لها فيما يضرُّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة:

« القَوَاعِد الأَربَع »

وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم؛ لذا حفظوه، وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذا المتن نفعًا -بإذن الله- شرح شيخنا/ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر -حفظه الله-.

ومِن باب التَّعاون علىٰ نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنتُه في إخراجها في كُتَيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ -حفظه الله- إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[٢].

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَل حَاوَلتُ المُحَافَظَة علىٰ كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقتَضِيه المَقَامُ مِن إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعنىٰ مع التَّعليق علىٰ بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم في الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

مُقَدِّمَةُ الشَّارِح

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّم عَلَيهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِين.

أمَّا بعد:

فقد كان الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ- ناصحًا للناس أعظم نصيحة في بيان التَّوحيد الَّذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، والتَّحذير من الشرك بالله ﷻ الَّذي هو أعظم الآثام وأكبر المُحرَّمات.

وتنوَّعت مصنفاته -رحمه الله تعالىٰ- في بيان التَّوحيد وتقريره، والتحذير من الشرك وإبطاله، وبيان فساده وبطلان شُبه أهله، فألَّف في ذلك مؤلفات كثيرة؛ نُصحًا للأمة وبيانًا للناس وإعذارًا وإنذارًا، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناصحًا معلِّمًا مربيًّا موجهًا متمسكًا بكتاب الله -جَلَّ وَعَلَا-، وسنة رسوله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِ-[1].

---

(١) قال الشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر -حفظه الله-: «دعوة الشيخ محمد بن =

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بياناته وتقريراته للتَّوحيد والسنَّة ينطلق في ذلك كله من كتاب الله -جَلَّ وَعَلَا- وسنَّة رسوله ﷺ، سائرًا في ذلك علىٰ سَنَن الصَّحابة الكرام وتابعيهم بإحسان، فهو ماضٍ علىٰ طريقهم، وعلىٰ الأثر في الاقتفاء والاتِّباع لكتاب الله -جَلَّ وَعَلَا- وسنَّة رسوله ﷺ.

ولهذا كانت كتبه كلها قائمة علىٰ الدَّليل؛ قال الله، قال رسوله ﷺ.

ولا يأتي بشيء من قِبل نفسه أو يُنشئ أمرًا تكلفًا من عنده، حاشاه وحاشىٰ أئمة المسلمين وعلماء السنَّة أن يكونوا كذلك، بل كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقريراته وتأصيلاته وتقعيداته منطلقًا في ذلك كله من الوحيين.

وقد تنوَّعت مصنفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان التَّوحيد وتقريره، والتَّأصيل له وجمع الشواهد والدَّلائل عليه من كتاب الله -جَلَّ وَعَلَا- وسنَّة نبيِّه ﷺ.

وكان من عنايته -رحمه الله تعالىٰ- بهذا الباب العظيم هذه الرسالة الصَّغيرة

=

عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبنيَّةٌ علىٰ كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وبيان العقيدة السليمة المستمدَّة من هذين الينبوعَين الصافيين، ولهذا كانت الأولويات في التأليف عنده في بيان العقيدة، والعناية بمعاني كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة أحاديث الرسول ﷺ، وبيان الأحكام الفقهية المستندة إلىٰ النصوص الشرعية، وكان أولىٰ اهتمامه وجلُّ عنايته في إيضاح توحيد العبادة الذي أُرسلَت الرسل وأُنزلت الكتبُ من أجله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فألَّف في التوحيد كتبًا عديدة، أهمها: «كتاب التوحيد الذي هو حقُّ الله علىٰ العبيد»، وكتاب «الأصول الثلاثة وأدلتها»، وكتاب «كشف الشبهات». «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص١٣).

الحجم الكبيرة الفائدة، الَّتي لا يستغني عنها كلُّ مسلم، فهي بحق رسالة عظيمة وكُتيِّب قيِّم في بابٍ هو أعظم الأبواب.

وقد جمع رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة أربع قواعد، وذكر أدلتها من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ، فكان مَن ضَبط هذه القواعد وفهمها لا يلتبس عليه الأمر ولا تشتبه عليه الشُّبه، ولا تنطلي عليه أضاليل أهل الضَّلال وأباطيل أهل الباطل.

فهي أربع قواعد عظيمة لا غنىٰ لأي مسلم عنها في باب معرفة التَّوحيد والشرك، والتَّمييز بين الحق الَّذي هو التَّوحيد، والباطل الَّذي هو الشرك.

ولقد أصبح معرفة التَّمييز بين التَّوحيد والشِّرك ضرورة ملحَّة، ولاسيما في مثل هذه الأزمنة المتأخِّرة الَّتي لُبِّس علىٰ كثير من النَّاس في مفهوم التَّوحيد، وأُدخلت عليهم صورٌ من الشرك وأبوابٌ منه علىٰ أنَّها ليست مضادة للتَّوحيد ولا منافية له.

فمن أعظم الضرورات وأشد الحاجات الَّتي ينبغي علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة أن يُعنىٰ بها: أن يعرف هذه القواعد العظيمة الكبار الَّتي قرَّرها أئمة الإسلام -رحمة الله عليهم- ليميِّز بها المسلم بين الشِّرك والتَّوحيد، والسنَّة والبدعة، وحتَّىٰ يكون المسلم علىٰ بصيرة في دينه، وعلىٰ بيِّنة من أمره، وعلىٰ نور من كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وسنَّة نبيِّه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِ-.

وأسأل الله أن يتقبَّل هذا العمل وأن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه ، إنه سبحانه خير مسئول، وهو أهل الرَّجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ أَن يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَأَن يَجعَلَكَ مُبَارَكًا أَينَمَا كُنتَ، وَأَن يَجعَلَكَ مِمَّن إِذَا أُعطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنَبَ استَغفَرَ.

فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنوَانُ السَّعَادَةِ.

الشرح

بدأ -رحمه الله تعالىٰ- هذه الرسالة كعادته في كتبه عمومًا ورسائله بالدعاء لمن يطلع علىٰ كتابه ويقرأ رسالته، ويدعو رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدعوات عظيمة؛ دعوات جامعة تجمع للمسلم خيري الدنيا والآخرة[1].

وهذا كذلك من نصحه -رحمه الله تعالىٰ-، ومن شفقته علىٰ الناس عمومًا ليتبصَّروا في دينهم، وليعرفوا الحق الذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، وليكونوا علىٰ حذر من الضلال والباطل.

بدأ هذه الرسالة بقوله: «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ»، وهذه كلمة يُبدأ بها في الدروس والمقالات والكتب والرسائل، وهي مفتاح يُبدأ به طلبًا لعون الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وتوفيقه وتسديده.

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصنيع المؤلف -رحمه الله تعالىٰ- يدل علىٰ عنايته وشفقته بالمخاطب، وقصد الخير له». «شرح ثلاثة الأصول» (ص١٩).

فقولك: «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » هذه كلمة استعانة؛ تبدأ كلامك أو كتابك أو دخولك أو خروجك أو غير ذلك مما بسملتَ لأجله، تبدؤه بالبسملة طالبًا بذلك عون الله -جَلَّ وَعَلَا-، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: الباء في (بِسمِ اللهِ) باء الاستعانة؛ أي: أبدأ مستعينًا بالله، طالبًا عونه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، متيمنًا وطالبًا البركة بذكر اسمه -جَلَّ وَعَلَا-.

وقولك: (بسم الله) الجار والمجرور هنا متعلق بمحذوف مقدَّر، يقدَّر له فعل بحسب حال الفاعل، إن كان خروجًا فيقدر: أخرج باسم الله، وإن كان دخولًا: أدخل باسم الله، وإن كان كتابة: أكتب باسم الله، وإن كان قراءة: أقرأ باسم الله.

وفي البسملة: «بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ» اجتمعت ثلاثة أسماء حسنىٰ لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-:

أولها: اسمه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- (الله): ومعناه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الله: ذو الألوهية، والعبودية علىٰ خلقه أجمعين»[1].

فاسمه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- (الله) يدل علىٰ أوصاف الكمال ونعوت الجلال وأوصاف العظمة، التي استحق بها -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أن يُؤلَّه وأن يُعبَد وأن يُخضَع له ويُذلَّ له -جَلَّ وَعَلَا-.

ودالٌّ أيضًا علىٰ العبودية التي هي وصف العبد، وأن الواجب علىٰ العبد أن يكون عبدًا للإله، ذليلًا له، خاضعًا لجنابه، منكسرًا بين يديه، قائمًا بطاعته وأمره

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٢٣).

-جَلَّ وَعَلَا-، محققًا العبودية التي خُلق لأجلها وأُوجد لتحقيقها.

و(الرَّحمَن الرَّحِيم): اسمان دالَّان علىٰ ثبوت الرحمة صفةً لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-؛ واسمه -جَلَّ وَعَلَا- (الرَّحمَنِ) يدل علىٰ صفة الرحمة القائمة به سبحانه.

واسمه (الرَّحِيم): دالٌّ علىٰ تعلقها بالمرحومين، كما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

فهذه ثلاثة أسماء عظيمة جاءت في البسملة، وبدأ بها -رحمه الله تعالىٰ- مؤلَّفه تأسيًّا بكتاب الله -جَلَّ وَعَلَا-، وتأسيًا بنبينا ﷺ في مُكاتباته ومُراسلاته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيه-، وتأسيًا بأئمة المسلمين وعلماء الإسلام في أول الزمان وآخره.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ أَن يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ».

(أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ)؛ أي: أطلب منه -جَلَّ وَعَلَا-.

(الكريم): اسم من أسماء الله -جَلَّ وَعَلَا-، وهو دالٌّ علىٰ صفة الكرم؛ وهذه الصفة تعني اجتماع صفات الخير وكوامل الصفات وجوامع النعوت.

فهو سبحانه كثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم في آيات عديدة، ولهذا؛ فإن هذا الاسم من الأسماء التي تدل علىٰ أوصاف عظيمة لا علىٰ معنىٰ مفرد، فمن الأسماء الدالة

علىٰ أوصاف عظيمة ونعوت جليلة كثيرة، ثابتة للرب: الكريم ﷻ[١].

قال: «أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ».

(رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ): ذكر هنا ربوبية الله ﷻ، والربوبية: هي المُلك، والخلق، والتصرف، والتدبير في هذه الكائنات.

وخصَّ بالذكر هنا العرش -ربوبية الله ﷻ للعرش-؛ لأنه أعظم المخلوقات وأكبرها، والله ﷻ وصف عرشه في القرآن الكريم بالعظمة والكرم والمجد، وجاءت أيضًا أوصاف كثيرة له في سنة النبي الكريم ﷺ، فذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ربوبية الله -جَلَّ وَعَلَا- للعرش، وخصَّه بالذكر لأنه أكبر المخلوقات وأعظمها.

ويأتي في بعض الأذكار والدعوات الثابتة عن النبي ﷺ ذكر ربوبية الله للعرش، ويخصُّه -عَلَيهِ الصَّلَاة والسَّلَام- بالذكر، كما في الذكر الذي يقال عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرضِ وَرَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ»[٢].

وكما أيضًا في الدعاء الذي يقال عند النوم: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الأَرضِ، وَرَبَّ العَرشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ، وَمُنزِلَ التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالفُرقَانِ...»[٣] إلىٰ آخر الدعاء، فيأتي مثل ذلك في

---

(١) انظر: «فقه أسماء الله الحسنىٰ» (ص٢٢١)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر -حفظه الله-.

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٠٣).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٣).

دعوات النبي الكريم ﷺ.

والعرش مخلوق من مخلوقات الله ﷻ العظيمة، وهو أكبر المخلوقات وأعظمها، ولهذا لما أراد -عَلَيهِ الصَّلَاة والسَّلَام- في تسبيحه لله أن يذكر أثقل الأوزان ذكر العرش، فقال ﷺ: «**سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ عَدَدَ خَلقِهِ، وَرِضَا نَفسِهِ، وَزِنَةَ عَرشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»(١).

ذكر ﷺ زِنة العرش؛ لأن العرش أثقل المخلوقات وأكبرها وأعظمها، وهو مخلوق لله -جَلَّ وَعَلَا-، خلقه سُبحَانَهُ، وأوجده من العدم، وشاء -جَلَّ وَعَلَا- أن يستوي عليه، أي يعلو ويرتفع عليه علوًّا وارتفاعًا يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه، كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه في مواضع من القرآن في قوله -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

وكم هو جميل للمؤمن في دعائه لله -جَلَّ وَعَلَا- ومناجاته له أن يذكر عظمة ربه -جَلَّ وَعَلَا- وكماله وكبرياءه، وعندما تُناجي الله ﷻ وتدعوه مُتذكرًا ربوبيته، ولاسيما ربوبيته -جَلَّ وَعَلَا- للعرش العظيم، وتذكر عظمة هذا المخلوق وكِبَره وضآلة المخلوقات الأخرىٰ بالنسبة إليه، مما يُعينك علىٰ ذكر عظمة الله -جَلَّ وَعَلَا- وكبريائه.

وأن هذا الكون الذي تحت العرش ودونه كله مسخر ومدبَّر لله -جَلَّ وَعَلَا-، يصرِّفه كيف يشاء ويقضي فيه بما يريد، لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، كما قال

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).

تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]، وكما في الحديث: «لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ»[1] أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-، وهو ﷻ فوق عرشه المجيد، عليٌّ عليه، يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، يُحيي ويُميت، ويُعز ويُذل، ويُغني ويُقني، ويُضحك ويُبكي، ويُصح ويُمرِض... إلىٰ غير ذلك من الأمور التي هي تصريفه وتدبيره لمملكته -جَلَّ وَعَلَا-، لا شريك له في التدبير، ولا شريك له في التسخير والقضاء، الأمر أمره، والقضاء قضاؤه، والحُكم حُكمه -جَلَّ وَعَلَا-.

فيذكر العبد عظمة الله وجلاله وكماله وربوبيته، ويجعل ذلك وسيلة له إلىٰ الله -جَلَّ وَعَلَا- بين يدي دعائه في مناجاته لله، ومناداته له -جَلَّ وَعَلَا-.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ».

يَحتمل قوله: (العَظِيم) أن المراد بالعظيم صفة لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، ويَحتمل أن يكون صفة للعرش، وكلٌّ منهما حق؛ فالله ﷻ من أسمائه الحسنىٰ (العَظِيم)، وقد خُتمت أعظم آية في القرآن الكريم وهي «آية الكرسي» بهذا الاسم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فالعظيم اسم من أسماء الله، والعظيم أيضًا صفة من صفات العرش، فيحتمل هذا ويحتمل ذاك.

«أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمَ»: يكون العظيم صفة لله -جَلَّ وَعَلَا-.

و«أَسأَلُ اللهَ الكَرِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ»: يكون العظيم بهذا صفة للعرش.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٣٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

قال: «أَن يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ»:

هذا هو المطلوب وما قبله وسيلة بين يديه: المطلوب قال: «أَن يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ»؛ أي: أن يكون وليًّا لك في دنياك وأخراك، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

يتولاك في الدنيا: أي: بحفظه وتوفيقه وتسديده وعونه لك علىٰ طاعته وإخراجه لك من الظلمات إلىٰ النور، وتبصيرك في دينك وفي الحق الذي خُلقت لأجله وأُوجِدت لتحقيقه، وأن يُثبِّتك علىٰ هذا الحق، وأن يعيذك من الضلال وسبل الغواية، كل ذلك يتناوله قوله: «أَن يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنيَا»؛ فتولي الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لعبده في الدنيا بحفظه في هذه الدنيا من مضلات الفتن وتثبيته لعبده علىٰ الاستقامة والحق والهدىٰ وعلىٰ صراط الله المستقيم إلىٰ أن يتوفاه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وهو عنه راضٍ.

قال: «وَالآخِرَةِ»؛ وتولي الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لعبده في الآخرة: يكون بحفظه من أهوالها وشدائدها، ويكون بإنقاذه وإنجائه من النار ومن دخولها، وتوفيقه له بدخول الجنة والفوز بنعيمها، وأن يكرمه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بأعظم نعمة وأجلِّ مِنة وهي أن يرىٰ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-؛ وهي أكبر النعم وأعظم المنن.

فكل ذلك داخل في قوله -رحمه الله تعالىٰ-: «وَالآخِرَةِ»؛ أي: أن يتولاك -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في الآخرة؛ بأن يكون وليًّا لك، بالحفظ والتوفيق والتسديد والعون... إلىٰ غير ذلك.

قال: «وَأَن يَجعَلَكَ مُبَارَكًا أَينَمَا كُنتَ».

وهذه دعوة من أعظم الدعوات وأجلِّها وأفخمها وأكبرها، وقد قال الله تعالىٰ في ذكر نبيه عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، ولا يكون الإنسان مباركًا أينما كان إلَّا إذا كان في مجالسه كلها صالحًا مصلحًا، صالحًا في نفسه ليس منه شر ولا أذىٰ ولا إفساد ولا نحو ذلك، وأن يكون مصلحًا بحيث إنه في كل مجلسٍ من مجالسه يُسمع منه الخير، وتُسمع منه الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، والتنبيه النافع، ونحو ذلك.

ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حلَّ، ونصحه لكل من اجتمع به»[1].

وبهذا يكون مباركًا أينما كان، أي: في أيِّ مكان حلَّ، وفي أيِّ موضع نزل، فهو أينما كان يُنتفع به، مَثَله كمَثل الغيث أينما حلَّ نفع.

قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، وهذا يتناول أن يكون العبد مباركًا أيضًا في نفسه، في ماله، ورزقه، وعمله، وبيته، وحاله، وشئونه.

قال: «وَأَن يَجعَلَكَ مِمَّن إِذَا أُعطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنَبَ استَغفَرَ»؛ دعا بهذه الأمور الثلاثة العظيمة التي جمعت الخير كله والسعادة برمتها[2].

---

(١) «رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه» (ص٥).

(٢) انظر: «الوابل الصيب» (ص١١).

ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة هذه الدعوة مُبيِّنا مكانتها وعظم شأنها، قال: «**فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنوَانُ السَّعَادَةِ**»؛ أي: إن السعادة اجتمعت فيها وتحققت، ونالها بأعلىٰ صورها وأبهىٰ حللها.

والسعادة من أعظم المطالب التي يسعىٰ الناس لتحقيقها، وتعقد المؤتمرات والندوات والمجالس وتكتب المؤلفات لطلب السعادة، وليس أحد من الناس إلا وهو يريد لنفسه السعادة، حتىٰ الذين يباشرون الفساد ويتعاطون أمور الانحراف يظنون أنها تجلب لهم السعادة، وأنها تتحقق لهم بتلك المسالك التي هي في الحقيقة مهالك لهم ومضار عليهم في دنياهم وأخراهم.

فالسعادة لا تُنال إلا بتحقيق هذه الأوصاف الثلاثة التي ذكرها -رحمه الله تعالىٰ- في هذه الدعوة المباركة العظيمة: الشكر، والصبر، والاستغفار، فهذه الأمور إذا اجتمعت في العبد اجتمعت فيه السعادة وتحققت له.

قال: «**وَأَن يَجعَلَكَ مِمَّن إِذَا أُعطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنَبَ استَغفَرَ**»، ولو تأملت تجد أن أحوال العبد في هذه الحياة الدنيا لا تخرج عن هذه الأمور الثلاثة؛ إما أن يكون مبتلىٰ بمصيبة، أو أن يكون ممتنًّا عليه بنعمة ومنة، أو أن يكون واقعًا في ذنب.

والواجب علىٰ العبد: أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة علىٰ أن يكون عند البلاء من الصابرين، وعند النعم من الشاكرين للمنعم ﷻ، وعند وقوعه في الذنوب من المستغفرين، فإذا كان كذلك جمع لنفسه الخير كله.

فقد قال -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-: «عَجَبًا لأَمرِ المُؤمِنِ إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤمِنِ، إِن أَصَابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وَإِن أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ»(١).

فالمؤمن عند المصيبة صابر، وعند النعمة شاكر، في المصائب يفوز بثواب الصابرين، وفي النعم يفوز بثواب الشاكرين، فهو فائز في كِلَا الحالين، في مصائبه فائز، وفي نعمه فائز، في مصائبه فائز بثواب الصابرين، وفي نعمه فائز بثواب الشاكرين.

والأمر الثالث قال: «وَإِذَا أَذْنَبَ استَغفَرَ»؛ أي: إذا وقع في الذنب بادر إلىٰ الاستغفار، ويعلم أن الله ﷻ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات، ولا يتعاظمه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ذنب أن يغفره، ولهذا لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه، فإنه يبادر بالأوبة والرجوع إلىٰ الله -جَلَّ وَعَلَا-.

وقد ذكر النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- قصة العبد الذي أذنب ذنبًا، فعَن أَبِي هُرَيرَةَ، عَنِ النَّبِي ﷺ فِيمَا يَحكِيْ عَن رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «أَذنَبَ عَبدٌ ذَنبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: أَذنَبَ عَبدِي ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِر لِي ذَنبِي.

فَقَالَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: عَبدِي أَذنَبَ ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-:

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

أَذنَبَ عَبدِي ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ، وَاعمَل مَا شِئتَ فَقَد غَفَرتُ لَكَ»[١].

قوله ﷺ: «اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك»؛ أي: ما دمتَ علىٰ هذه الحال؛ ملازمًا للاستغفار، مجاهدًا نفسك علىٰ ألَّا تقع في المعصية، وألَّا تقع في الخطيئة، وإن بدر منك زلل أو وقعت في خطأ بادرت إلىٰ الاستغفار، ما دمت علىٰ هذه الحال فأنت مغفور لك.

وقد قال ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[٢]؛ ابن آدم ليس معصومًا، ابن آدم خطاء، لكن له ربٌّ يغفر ﷻ، ويتجاوز ويصفح ﷻ.

ولهذا؛ إذا وقع العبد في ذنب جرَّته إليه نفسه الضعيفة ودعاه إليه الشيطان، أو جرَّه إليه قرناء السوء وخلطاء الفساد، أو أغوته نفسه للوقوع فيه، عليه أن يعلم فورًا أن له ربًّا يغفر الذنب ويتجاوز عنه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فلا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر ويتجاوز ويصفح ﷻ، وأما ابن آدم فضعيف وكثير الخطأ والزلل، ودواعي الخطأ كثيرة جدًّا، وقد قيل: «لا تعجب ممن هلك كيف هلك؛ ولكن اعجب ممن نجا كيف نجا»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٣٩).

(٣) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٢).

الأمور التي تجرُّ الإنسان إلىٰ الخطأ كثيرة جدًّا، لكن لا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر، لهذا لا يزال العبد يجاهد نفسه علىٰ البعد عن الذنوب وعدم الوقوع فيها، وإذا انفلتت نفسه ووقع في زلة أو وقع في خطيئة بادر إلىٰ التوبة والاستغفار.

ومن عظيم حب الله -جَلَّ وَعَلَا- للاستغفار والمستغفرين ما ثبت عن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَو لَم تُذنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُم وَلَجَاءَ بِقَومٍ يُذنِبُونَ فَيَستَغفِرُونَ اللهَ فَيَغفِرُ لَهُم**»(١).

ولهذا؛ ربما كانت بعض الذنوب علىٰ الإنسان خيرًا له؛ لأنها تفتح عليه باب ندم عظيم وباب استغفار كثير، ربما بدون هذا الذنب يقل استغفاره، لكنه يقع في ذنب وزلة، ثم يقع في قلبه حياء عظيم من الله ﷻ ومراقبة لله وألم وندم علىٰ ما وقع فيه من ذنب وخطيئة، فيكثر علىٰ لسانه الاستغفار كثرة ربما لا تكثر علىٰ لسانه لولا أنه ما وقع في هذا الذنب الذي ابتلي به، ولهذا لا يزال العبد بخير مادام أنه إذا أذنب استغفر(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) **قال الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة، والندم، والانكسار، والذل، والافتقار، والاستعانة به، وصدق اللجأ إليه، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه، بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته حتىٰ يقول عدو الله : (يا ليتني تركته ولم أوقعه).

وهذا معنىٰ قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا : كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلًا باكيًا نادمًا =

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَن يَجعَلَكَ مِمَّن إِذَا أُعطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنَبَ استَغفَرَ».

الذنب في ابن آدم لابد منه، أي لا بد أن يقع فيه، وذنوب الإنسان قد تكون كثيرة، ولهذا ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار.

وقد كان سيد ولد آدم أكثر الناس استغفارًا وليس في عباد الله أكثر استغفارًا من رسول الله ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه مع ذلك كان أكثر الناس استغفارًا، حتىٰ قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رأيت أحدًا أكثر من رسول الله ﷺ يقول: **أستغفر الله وأتوب إليه**»[1].

وقد رأىٰ أبو هريرة عُبَّاد الصحابة وخيار الأمة وأكثر الناس استغفارًا وما رأىٰ في ذلك الجيل أكثر من النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- ملازمة للاستغفار.

=

مُستَحِيًا من ربه تعالىٰ، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه؛ حتىٰ يكون ذلك الذنب سببًا دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها علىٰ ربه ويتكبر بها، ويرىٰ نفسه ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه؛ فإذا أراد الله تعالىٰ بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به، ويذل به عنقه، ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه». «الوابل الصيب» (ص١١).

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرىٰ» (١٠٢٨٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٢٨)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان» (٩٢٤).

فكان -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- ملازمًا للاستغفار في حياته كلها، حتىٰ إنه ختم حياته كلها بالاستغفار؛ كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قَالَت: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهوَ مُستَنِدٌ إِلَيَّ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ اغفِر لِي وَارحَمنِي، وَأَلحِقنِي بِالرَّفِيقِ الأَعلَىٰ**»(١).

الشاهد: أن العبد تتحقق له السعادة إذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث العظيمة، ألا وهي: الصبر، والشكر، والاستغفار.

ولعل في هذه الدعوة العظيمة المباركة التي دعا بها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تكون فاتحة باب لك أن تعتني بهذه الأمور الثلاثة التي هي عنوان السعادة: الصبر، والشكر، والاستغفار، بحيث تكون مجاهدًا لنفسك علىٰ تحقيقها، وإذا كان صبرك ضعيفًا فاجتهد في تنميته، واسأل الله -جَلَّ وَعَلَا- المعونة علىٰ ذلك، وإذا كان شكرك قليلًا فاجتهد أيضًا علىٰ تكثيره وتقويته، واسأل الله عَزَّ وَجَلَّ المعونة علىٰ ذلك، قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل:١٩].

لا تكون شاكرًا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إلا إذا أعانك الله ويسَّر لك، وأن تعتني بالاستغفار، وأن تكثر منه، وأن يكون استغفارك في مجالسك وفي تنقلاتك وفي حركاتك استغفارًا كثيرًا.

فهذه كما أنها دعوة فهي لفتة من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ العناية بهذه الأمور

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٤)، ومسلم (٢١٩١).

الثلاثة التي هي أبواب السعادة.

وتكون عنايتك بها من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أن تدعو لنفسك بهذا الدعاء أن ييسر الله ﷻ لك هذه الأمور الثلاثة، التي هي عنوان السعادة.

والجهة الثاني: أن تُتبع الدعاء بفعل السبب؛ وذلك بأن تجاهد نفسك علىٰ أن تكون من الذين إذا ابتلوا صبروا، وإذا أنعم عليهم شكروا، وإذا أذنبوا استغفروا.

❋ ❋ ❋

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«اعلَم أَرشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ؛ أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ: أَن تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُم لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات:٥٦].

فَإِذَا عَرَفتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعلَم أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّىٰ صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا دَخَلَ الشِّركُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَت؛ كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا عَرَفتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفسَدَهَا، وَأَحبَطَ العَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيكَ مَعرِفَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلَّ اللهَ أَن يُخَلِّصَكَ مِن هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّركُ بِاللهِ، الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦].

وَذَلِكَ بِمَعرِفَةِ أَربَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ».

الشرح

قال -رحمه الله تعالىٰ-: «اعلَم أَرشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ».

(اعلم): هذه الكلمة يؤتىٰ بها بين يدي الأمور العظيمة والأمور الكبار، وقد تكرر مجيئها في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في التنبيه علىٰ الأمور العظام، ومن ذلكم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فيؤتىٰ بها لشد الانتباه ولفته، واستدعاء القلوب للإصغاء ووعي هذه الأمور العظيمة الكبيرة.

قال: «اعلَم أَرشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ»؛ وهنا دعا الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الدعوة العظيمة بعد أن دعا إلىٰ الانتباه لِمَا سيقال ولما سيُبيِّنه -رحمه الله تعالىٰ-.

(أَرشَدَكَ): أي: جعلك من أهل الرشاد، الذي هو ضد الغواية، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصف نبيه ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢]، والضلال ضده الهداية، والغواية ضد الرشاد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾؛ أي: إنه سالم من الضلال والغواية، وذلك بأنه اجتمع له -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- كمال العلم النافع، والعمل الصالح.

وقد قال نبينا -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- في ذكر الخلفاء الراشدين: «**فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**»[1]، جمع لهم بين هاتين الخصلتين، وهما تعنيان صلاح علم الإنسان وصلاح عمله.

الهداية: صلاح العلم.

والرشاد: صلاح العمل.

قال: «أَرشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ»؛ أي: جعلك الله من أهل الرشاد الذين هم عالمون بالطاعة، عاملون بها، محافظون عليها.

«أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ: أَن تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ»؛ هذا الأمر الذي دعا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الانتباه إلىٰ ضبطه والعلم به ومعرفته؛ أن الحنيفية ملة إبراهيم:

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٥٧).

أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، فهذه هي ملة أبينا إبراهيم خليل الرحمن -عَلَيهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ-.

وقد قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣]، فمِلَّة إبراهيم التي أُمرنا باتباعها هي: الحنيفية، وتأمل الآية، قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، فالدين الذي أُمرنا باتباعه ولزومه هو الحنيفية ملة إبراهيم، ولهذا كان متأكِّدًا علىٰ كل مسلم أن يعرف الحنيفية ما هي، لأننا أُمرنا باتباعها ولزومها والتمسك بها والمحافظة عليها وأن نكون من أهلها.

قال: «اعلَم أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ أَن تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ»؛ هذه هي الحنيفية: أن تعبد الله مخلصًا له الدين، ولهذا لا يكون الإنسان حنيفًا إلا إذا كان مخلصًا، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، لا يكون من الحنفاء -والحنفاء جمع حنيف- إلا إذا كان مخلصًا دينه لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، بدون ذلك لا يكون حنيفًا.

والحَنَف: أصله في اللغة: الميل[1]، والمراد هنا: الميل والعدول عن الباطل إلىٰ الحق والهدىٰ والتوحيد والاستقامة؛ مائلًا عن الشرك إلىٰ التوحيد، وعن الضلال إلىٰ الهدىٰ، وعن الباطل إلىٰ الحق، وعن الغواية إلىٰ الرشاد، هذا هو الحنيف[2].

---

(١) «لسان العرب» (٩/ ٥٦)، «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١١٠).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَ(الحَنِيفِيَّةُ) هِيَ الِاستِقَامَةُ بِإِخلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُبَّهُ تَعَالَىٰ وَالذُّلَّ لَهُ، لَا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا لَا فِي الحُبِّ وَلَا فِي الذُّلِّ؛ فَإِنَّ العِبَادَةَ تَتَضَمَّنُ =

قال: «الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبرَاهِيمَ أَن تَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لَهُ الدِّينَ»، وقوله: أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، هذا هو التوحيد الذي خُلقنا لأجله وأُوجدنا لتحقيقه.

ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات:٥٦]»، فالتوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأُوجدوا لتحقيقه هو أن يعبدوا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مخلصين له الدين.

وهذا يتطلب منك أن تعرف:

أولًا: العبادة ما هي، وما حقيقتها، وما أفرادها؟

ويتطلب منك ثانيًا: أن تجعلها كلها لله، ولا تجعل لأحد منها شيئًا.

يتطلب منك أن تعرف العبادة التي خُلقت لأجلها وأُوجدت لتحقيقها، ويتطلب منك أن تجعل العبادة كلها لله ﷻ، لا تجعل لأحد أيًّا كان، ومهما كان حظًّا ولا نصيبًا، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما، فالعبادة حق لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وحده.

قال: «أَن تَعبُدَ اللهَ مُخلِصًا»، ومعنىٰ (مخلصًا): أي أن تكون عبادتك لله خالصة، ومعنىٰ خالصة: أي صافية نقية[1]، ليس فيها شائبة شرك ولا رياء

=

غَايَةَ الحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ؛ وَذَلِكَ لَا يَستَحِقُّهُ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ، وَكَذَلِكَ الخَشيَةُ وَالتَّقوَىٰ لِلَّهِ وَحدَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ وَحدَهُ». «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٤٦٦).

(١) قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطَّرِد، وهو تنقيةُ الشَّيء وتهذيبُه. يقولون: خلَّصتُه من كذا وخَلَصَ هو». «المقاييس في اللغة» (٢/ ٢٠٨).

ولا سمعة، ولا نحو ذلك، بل هي صافية لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

وإذا أردت أن تعرف معنىٰ الإخلاص في لغة العرب فاقرأ قول الله تعالىٰ في «سورة النحل»، والتي تسمىٰ كذلك «سورة النِّعم»، اقرأ قوله -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦]، ﴿خَالِصًا﴾: أي صافيًا نقيًّا، هذا معنىٰ الخالص.

وقد وصف ربنا -جَلَّ وَعَلَا- اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام بأنه خالص في صفائه ونقائه، وذكر -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- أنه أخرجه من بين فرث ودم، لكنه خرج خالصًا لا ترىٰ فيه نقطة دم ولا قطعة فرث، مع أنه خرج من بينهما، ويخرج أيضًا سائغًا للشاربين، مع أنهم علموا مخرجه؛ لكنه سائغ لهم، أي يشربونه بتلذذ وهناءة وتطعُّم له وحُبٍّ له، فهذه الآية تبين لك معنىٰ الخالص في لغة العرب.

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر:٣]؛ أي: الصافي النقي.

ولهذا؛ العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلَّا إذا كانت لله خالصة، ومعنىٰ خالصة؛ أي: صافية نقية، لم يُرَد بها إلا الله -جَلَّ وَعَلَا-.

ولهذا؛ إذا خالط العبادة نية أخرىٰ فإنها تخرج عن الإخلاص، وإذا خرجت عن الإخلاص لم تُقبل، ولهذا قال ربنا ﷻ في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي تَرَكتُهُ وَشِركَهُ**»[١]؛

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

أي: أنه ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان صافيًا نقيًّا خالصًا لم يُرَد به إلا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

قال: «كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات:٥٦]»؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ -الخَلقُ فعله ﷻ- قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾؛ أي: لم يوجد الثقلين من العدم إلا لغاية بيَّنها ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فمعنىٰ قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: إلا ليوحدون في العبادة، ليخصوني بالعبادة، لا يعبدوا معي غيري، ليفردوني في العبادة[1].

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ العبادة فعل العبد، والله ﷻ جعل في العبد مشيئة، وهداه النجدين؛ طريق الحق وطريق الضلال، قال تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، فقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: إلا ليقوموا بعبادتي، هذا الذي خلقهم لأجله.

لكن هل كلهم فعل ذلك الذي خُلِقوا له؟

الجواب: لا؛ ولهذا قال في آية أخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦].

قال: «فَإِذَا عَرَفتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعلَم أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوحِيدِ»؛ وهذا أصل لابد أن يعرفه كل مسلم، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٥٥).

«﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وَحِّدُوا رَبَّكُم»[١]؛ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد.

والعبادة إذا دخلها إرادة غير الله وإشراك غيره -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- معه في العبادة فلا تكون العبادة التي خلق الله الخلق لأجلها، قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، هذه العبادة التي خلق الله ﷻ الخلق لأجلها هل هي تلك الأعمال التي يمارسها كثير من الناس؛ يسألون الله، ويسألون الأحجار، يعبدون الله، ويعبدون القباب والأحجار والأشجار وغيرها، هل هذا الذي خُلقوا لأجله؟ هل هذا هو المعني بقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾؟

حاشىٰ وكلَّا، هذا ليس عبادة، وإنما هو شرك بالله -والعياذ بالله-.

ونظَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذلك بمثال يوضح ذلك قال: «**فَاعلَم أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّىٰ عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّىٰ صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ**»؛ لو أن إنسانًا صلىٰ؛ ركع وسجد وأتىٰ بأعمال الصلاة من أولها إلىٰ آخرها وهو علىٰ غير طهارة، هل يقال له: صليت، أو يقال له: لَم تُصَلِّ.

يقال له: ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ، أي: لم تصلِّ الصلاة التي أُمرت بها وطُلبت منك، فالذي يصلي بغير طهارة كأنه ما صلىٰ، فصلاته وجودها وعدمها سواء؛ لأن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع الطهارة[٢]، والعبادة لا تكون عبادة إلا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٤٥١).

(٢) لأن الطهارة من «شروط الصلاة:

الشروط جمع شرط، والشرط هو الذي يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود، والمعنىٰ: أنه يلزم من كون الإنسان غير متطهر ألَّا تصح له صلاة؛ لأن شرط الصلاة الطهارة، =

مع التوحيد، فإذا كانت العبادة قائمة علىٰ التوحيد كانت عبادة صحيحة مقبولة.

وإذا كانت العبادة -ولو كانت كثيرة- أمضىٰ فيها الإنسان حياته ودهره إذا لم تكن قائمة علىٰ التوحيد، فإنها كلها تذهب سدىٰ وتضيع هباء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

فهذا أصل عظيم يجب علىٰ كل مسلم أن يضبطه؛ العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلا بالطهارة، فمن عَبَدَ الله بغير التوحيد فهو مشرك بالله، لا يقبل الله ﷻ عبادته، ومن عَبَدَ الله ﷻ بالصلاة من غير طهارة لم يقبل الله منه صلاته، وجود صلاته وعدمها سواء.

فهذا أصل عظيم يجب علىٰ كل مسلم أن يضبطه وأن يعتني به؛ وهذا يعني أن تعرف العبادة ما هي.

والأمر الثاني: أن تجعلها كلها لله؛ لأن الإنسان لو جعل لغير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- شيئًا من العبادة -ولو شيئًا قليلًا- أبطل دينه كله؛ لأن العبادة لا تكون

=

لقوله ﷺ: «**لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتىٰ يتوضأ**». رواه البخاري (٦٩٥٤) ومسلم (٥٣٧) عن أبي هريرة.

وقد يتوضأ الإنسان ثم يحدث دون أن يصلي صلاة بذلك الوضوء، فلا يلزم من وجود الطهارة وجود الصلاة». «شرح شروط الصلاة وأركانها وواجباتها لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب» (ص٤)، للشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر -حفظه الله-.

عبادة إلا مع التوحيد، فإذا جُعل مع الله ﷻ شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها أبطل العبادة كلها.

والشرك في العبادة مثل السُّم في الطعام، إذا وُضع السُّم في بعض الطعام أفسد الطعام كله وأتلفه أجمعه، ومَن الذي يقبل طعامًا وُضع في بعضه سمٌّ؟

العبادة لا تكون إلا مع التوحيد؛ بأن يكون العبد موحدًا لله -جَلَّ وَعَلَا-، مخلصًا في عبادته كلها، وهذا يعني أن تكون صلاتك لله، حجك لله، ذبحك لله، نذرك لله ، دعاؤك تتوجه به إلىٰ الله، توكلك علىٰ الله، رجاؤك من الله، خوفك من الله، كل العبادات لا تصرف شيئًا منها إلا لله ﷻ، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن:١٨]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا.

قال: «فَإِذَا دَخَلَ الشِّركُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَت؛ كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَة»؛ الشرك إذا دخل في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة، الإنسان إذا كان علىٰ طهارة، توضأ وأصبح طاهرًا ثم أحدث فلا تبقىٰ طهارته.

وكذلك الشرك إذا دخل في العبادة أفسدها مثل الحدث إذا دخل علىٰ الطاهر فإنه يفسد طهارته ويحتاج أن يتطهر من جديد.

وهذا الشبه بين الطهارة من الحدث والطهارة من الشرك جاء الإشارة إليه في قوله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر:٤]؛ قيل في معناها: طهِّر نفسك من الشرك ومما ينقض الدين ويفسد الإيمان، وقيل في معناه: طهِّر ثيابك من النجاسة الحسية.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: يتناول الطهارة المعنوية والطهارة الحسية: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:٥]؛ أي الأصنام، وعبادة غير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

قال: «فَإِذَا دَخَلَ الشِّركُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَت؛ كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَة»؛ المثال الذي ذكره المصنف مثال يُجلِّي هذا الأمر تجلية واضحة، فالذي يعرف مكانة الطهارة في الصلاة لا يُقدِم علىٰ إقامتها وعليه الحدث، وهذا يعرفه عامة المصلين، وأن صلاتهم لا تُقبل إلا بالطهارة، فمن عرف ذلك وفي أثناء توجهه للمسجد ثم أحدث في الطريق فإنه لا يستمر في سيره للمسجد، وإنما يبحث عن مكان ليتطهر ثم يدخل ليصلي طاهرًا، وهذا أمر معروف.

الأمر تمامًا في باب العبادة، العبادة لا تكون عبادة مقبولة إلا إذا خلصت ونُقيت وسَلِمت من الشرك، فإذا دخل عليها في العبادة أفسدها وأتلفها.

قال: «فَإِذَا عَرَفتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفسَدَهَا، وَأَحبَطَ العَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيكَ مَعرِفَةُ ذَلِكَ»؛ أي: معرفة الشرك فإنه مهم جدًّا؛ لأنه إذا دخل في العبادة جعلها حابطةً باطلةً غير مقبولة، إذن يجب عليك أن تعرف الشرك من أجل أن تنقِّي عبادتك وتصفيها لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وتجعلها خالصة له ليس فيها شيء من الشرك، فإذن يجب علىٰ كل مسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذره.

عَـرَفتُ الـشَّرَّ لَا لِلـشَّرِّ ... لَـكِـن لِتَـوَقِّـيـهِ
فَمَـن لَـم يَعـرِفِ الـشَّرَّ ... مِـنَ الـنَّاسِ يَقَـع فِـيهِ

لكن إذا لم يعرف الإنسان الشرك وحقيقته ربما دخل الشرك في جوانب من عبادته فأفسدها، وهو في قرارة نفسه لا يزال يظن أنه من أهل التوحيد ومن أهل لا إله إلا الله؛ بينما قد أدخل على نفسه أعمالًا من الشرك تفسد عمله وعبادته وتحبط دينه من حيث لا يشعر.

وتأمل دعوة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦].

أي: أبعدني وبني من عبادة الأصنام، واجعلني وإياهم في جانب بعيد عن عبادتها والإلمام بها، وفي هذا: الخوف من عبادة الأصنام والحذر الشديد من ذلك، وليتأمل العاقل ذلك فإنَّ هذا مما يخيف العبد من الشرك، ويوجب للقلب الحي الخوف منه، فإذا كان إبراهيم إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده، وابتلي بكلمات فأتمهن، وكسر الأصنام بيده، يخاف أن يقع في الشرك، ويسأل ربه أن يجنب بنيه عبادة الأصنام، فما الظن بغيره؟!

وكيف يأمن الوقوع فيه من هو دونه بمراتب؟!

روى الإمام الطبري في تفسيره عن إبراهيم التيمي أنه كان يقص ويقول في قصصه: «ومن يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]»[1].

---

(١) «جامع البيان في تأويل القرآن» (١٧/ ١٧)، وانظر: «فقه الأدعية والأذكار» (٤/ ٣٧١).

قال: «فَإِذَا عَرَفتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفسَدَهَا، وَأَحبَطَ العَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ».

قوله: «وَأَحبَطَ العَمَلَ» يدل عليه قول الله في القرآن: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦]، فقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾؛ أي: وحده -جل وعلا-.

فالشرك إذا دخل العبادة أفسدها وأحبط العمل، وصار صاحبه من المخلدين في النار -والعياذ بالله-، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

«عَرَفتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيكَ مَعرِفَةُ ذَلِكَ»؛ أي: معرفة الشرك لتوقِّيه ومعرفة التوحيد لتحقيقه.

قال: «لَعَلَّ اللهَ أَن يُخَلِّصَكَ مِن هَذِهِ الشَّبَكَةِ»، وانظر هذا الوصف العجيب للشرك، الشرك: شبكة، والشبكة لها خيوط كثيرة ممتدة الأطراف هنا وهناك وإذا لامس الإنسان شيئًا من خيوط هذه الشبكة ابتُلي بها وأمسكته وصار من أهلها.

فالشرك شبكة، له خيوط، وله فروع كثيرة، وأنواع عديدة، وأبواب متعددة، فإذا عرفت أن الشرك أخطر شيء، وأنه إذا دخل العبادة أفسدها أو أبطلها، وجب عليك أن تكون علىٰ معرفة به حتىٰ تكون منه علىٰ حذرٍ وتوقٍّ وبُعدٍ عنه.

وأيضًا هنا يفيدك هذا التعبير من المصنف بقوله: «هَذِهِ الشَّبَكَةِ» أن الشرك له مجالات كثيرة وجوانب عديدة من خلالها يُصطاد الناس، ويخرجون عن الإخلاص والصفاء في العبادة لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إلىٰ الوقوع في شبكة الشرك -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَعَلَّ اللهَ أَن يُخَلِّصَكَ مِن هَذِهِ الشَّبَكَةِ وَهِيَ الشِّركُ بِاللهِ»، يتطلب منك -كما قدمت وأعيد ذلك لأهميته-:

* أن تعرف الشرك.

* وأن تكون منه علىٰ حذر.

* وأن تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعيذك منه.

قد جاء في دعاء عظيم، علَّمه النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- أصحابه، عندما قال لهم: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّركَ، فَإِنَّهُ أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ.

فَقَالَ لَهُ مَن شَاءَ اللهُ أَن يَقُولَ: وَكَيفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن أَن نُشرِكَ بِكَ شَيئًا نَعلَمُهُ، وَنَستَغفِرُكَ لِمَا لَا نَعلَمُ»[1]، فيدعو الإنسان ربه -جَلَّ وَعَلَا- أن يخلِّصه من الشرك، ويعرف الشرك، ويكون منه علىٰ حذر.

---

(١) رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

قال: «وَهِيَ الشِّركُ بِاللهِ، الَّذِي قَالَ الله تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾» وهذه الآية وردت في موضعين من سورة النساء [٤٨] و[١١٦]، وقد توعَّد -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- المشرك الذي يموت علىٰ الشرك ويلقىٰ الله ﷻ مشركًا بأنه لا يغفر له، بل يعذبه في النار ويخلده فيها أبد الآباد، ولا مطمع له في رحمة الله أبدًا إذا مات علىٰ الشرك بالله -جَلَّ وَعَلَا-، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر:٣٦].

فالكافر المشرك يُدخَل يوم القيامة النار ويُخلَّد فيها أبد الآباد، ولا يُخفف عنه من عذابها، بل إنه يزيد، ولهذا قال -جَلَّ وَعَلَا- في سورة النبأ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾ [النبأ:٣٠]، ولهذا قال بعض المفسرين: إن أشد آية علىٰ أهل النار هي هذه الآية؛ لأنهم عندما يدخلون النار لا يزال عندهم بعض الآمال، مثل أن يعودوا إلىٰ الدنيا مرة ثانية: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر:٣٧]، أو أن يُقضىٰ عليهم فيموتوا ويَسلموا من هذا العذاب ومن هذه الشدائد، ومن الآمال أن يُخفَّف عنهم العذاب ولو قليلًا، ثم يأتيهم هذا الأمر الذي يقطع عليهم كل الآمال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾؛ أي: لن تنالوا في النار إلا زيادة العذاب، لا ينقطع ولا يُخفف ولا يُقضىٰ علىٰ أهلها، بل لا يزالون في العذاب أبد الآباد مخلَّدين في نار جهنم -أجارنا الله وأجاركم ووقانا ووقاكم-.

فإذن يجب علىٰ العبد أن يكون في غاية الحذر من هذا الشرك الذي هو أخطر وأعظم ما نهىٰ الله ﷻ عباده عنه.

ولهذا أول أمر يصادفك في القرآن هو الأمر بالعبادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، وأول نهي يصادفك في القرآن النهي عن الشرك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، هذا أول شيء نهىٰ الله عنه في القرآن الكريم.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَذَلِكَ بِمَعرِفَةِ أَربَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ»؛ وانتبه لقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ» لتعلم من خلال ذلك أن الرَّجل -رحمة الله عليه- لا يأتي بشيء من نفسه، لا يتكلف من نفسه؛ وإنما يجمع للناس ما جاء في القرآن، وما جاء في سنة النبي الكريم -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-.

قال: «وَذَلِكَ بِمَعرِفَةِ أَربَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ»، ثم ذكرها قاعدة قاعدة، ذاكرًا مع كل قاعدة دليلها وشاهدها من كتاب الله ﷻ.

❋ ❋ ❋

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

القاعدة الأولى

أَن تَعلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَم يُدخِلهُم فِي الإِسلامِ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

الشرح

بدأ المؤلف -رحمه الله تعالىٰ- هذه القواعد بقوله: «**وَذَلِكَ بِمَعرِفَةِ أَربَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ**» يُبيِّن لنا المنهج الذي سار عليه رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان العلم وتقرير الحق والهدىٰ، فهو في كل ما يبيِّنه ويقرِّره يذكر شواهد ذلك من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، لا يأتي بشيء من قِبَل نفسه، ولا يَبني حُكمًا علىٰ الهوىٰ أو علىٰ التجربة أو علىٰ الذوق، أو نحو ذلك من المسالك التي يسلكها كثير من الناس في الاستدلال لِما يقومون به من عبادات وأعمال.

وهذه الطريقة هي الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها كل مسلم في عقيدته ودينه؛ إذ كيف تُعرف العقيدة الصحيحة والإيمان القويم بغير الاعتماد علىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ؟!

وكما قال أهل العلم: «كيف يُرام الوصول إلىٰ علم الأصول بغير معرفة ما جاء به الرسول ﷺ؟»[١].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا ما يقول: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ»[٢].

فهذه جادة مباركة وطريق قويمة كان عليها الإمام المجدد -رحمه الله تعالىٰ-، وكان عليها أئمة أهل العلم من قبله وكذا من بعده، يقيمون أمور الدين علىٰ قال الله قال رسوله ﷺ.

ولهذا قال لك هنا: «**وَذَلِكَ بِمَعرِفَةِ أَربَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ**»، ثم شرع في ذكرها قاعدة تلو الأخرىٰ؛ بدأ بالقاعدة الأولىٰ، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**أَن تَعلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَم يُدخِلهُم فِي الإِسلامِ**».

وهذا أصلٌ عظيم وقاعدة مهمة جدًّا في هذا الباب؛ أن نعلم أن الكفار المشركين الذين ورد ذمُّهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقاتلهم النبي ﷺ، واستباح أموالهم وقاتلهم ﷺ كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المُنعم هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، ما كانوا يقولون إن الذي يخلق، أو الذي يرزق، أو الذي يعطي ويمنع هو الأصنام؛ بل يقولون: الخالق هو الله، الرازق الله، المنعم الله،

---

(١) ذكره الإمام ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٨).

(٢) نقله عنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

المدبر الله، كانوا يقولون ذلك ويقرّون به، والله ﷻ بيَّن لنا ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة جدًّا، وأن المشركين الكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، ولم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، كما بيَّن ذلك المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: «لَم يُدخِلهُم فِي الإِسلامِ»؛ لأن الدخول في الإسلام لا يكون بمجرد الإقرار بربوبية الله فقط[1]؛ بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازم هذا الإقرار، ألا وهو أن يُفرَد الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بالعبادة ، وأن يُخصَّ وحده ﷻ بالطاعة، وألَّا يُجعل معه شريك، وأن يخلص الدين له -جَلَّ وَعَلَا-، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

وكما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦].

وكما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وكما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦].

وكما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

وكما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣].

---

(١) انظر كلام شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر -حفظه الله- في كتابه «القول السديد في الرد علىٰ من أنكر تقسيم التوحيد» (ص٥٧).

وكما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا.

فلا يكون المرء موحدًا لله ﷻ إلَّا إذا أخلص العبادة لله؛ إذ لا يكون موحدًا إلا إذا جاء بالتوحيد العملي الذي هو: إخلاص العبادة لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وإفراده سبحانه بالعبادة دون سواه؛ بألَّا يدعو إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يصلي ويسجد ويركع إلا لله، ولا يذبح ولا ينذر إلا لله، ولا يتوكل ويرجو ويخاف إلا من الله، ولا يصرف شيئًا من العبادة إلا له ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]؛ أي: بهذا التوحيد وهذا الإخلاص لله ﷻ.

وقال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٧].

ولمَّا كانت هذه الرسالة رسالة مختصرة لا تحتمل الاستيعاب وبسط الدلائل والشواهد اكتفىٰ بذكر دليل واحد من دلائل القرآن الكريم علىٰ أن الكفار المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المنعِم المتصرِّف المدبر هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

فَسَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ ما جاء في سورة يونس، قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ قل أيها النبي موجهًا الخطاب للمشركين الذين بُعثتَ فيهم قائلا لهم: من يرزقكم؟ سلهم هذا السؤال: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ [يونس:٣١].

سل المشركين الذين يعبدون الأصنام والذين اتخذوا الآلهة والأنداد وعبدوا مع الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- غيره، سلهم هذا السؤال: قل لهم من يرزقكم من السماء والأرض؟ من الذي يمنُّ عليكم بالرزق من السماء؟ أي: بالأمطار التي تنزل من السماء مُحمَّلة بالخير والبركة والغيث للناس والعباد والماشية، ومن الأرض بإخراج النباتات والزرع وأصناف النعم التي يَمنُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بها علىٰ عباده، ماذا يقولون؟

هل يقولون إن الذي يرزقنا من السماء والأرض هو الأصنام؟

لا يقولون ذلك، بل يعتقدون أن الأصنام ليست خالقة ولا رازقة ولا مدبِّرة ولا متصرفة.

سلهم أيضًا: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾: من الذي بيده ملك السمع وملك البصر وملك كل شيء؟ سيقولون: الله هو المالك للسمع والبصر والمالك لكل شيء.

سلهم أيضًا ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾: من هو الذي بيده الحياة والموت والتصريف والتدبير، ويخرج الحي من الميت، ويخرج

الميت من الحي؟ لا يقولون الأصنام، بل يقولون: الذي يفعل ذلك هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، الخالق لكل شيء، المتصرف في هذا الكون وحده -جَلَّ وَعَلَا-.

سلهم أيضًا ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: أمور هذا الكون من إحياء وإماتة، وعطاء ومنع، وخفض ورفع، وعز وذل، وغير ذلك من أنواع التدبيرات، من الذي يقوم بذلك؟ لا يقولون الأصنام هي التي تدبر الأمر، بل يقولون: الله.

ولهذا قال -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ هذا الجواب الذي يجيبون به.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فسيقول المشركون الكفار إذا سألتهم هذه الأسئلة، فيجيبونك: الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ إذا قالوا الذي يخلق هذه الأشياء ويدبر هذه الأمور هو: الله، فقل لهم: ألا تتقون الله؟ لماذا تتخذون معه الأنداد وتتخذون معه الشركاء؟ وأنتم تقرُّون أنه لا خالق لكم غير الله، ولا مدبر للأمر غير الله، ولا مالك إلا الله، ألا تتقون الله، فتُفرِدونه بالتوحيد وتخصُّونه بالطاعة وتخلصون له الدين، وقد أقررتم أنه خالقكم ورازقكم والمدبر للأمور كلها؟ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: بترك الشرك والبعد عن الكفر وبالإخلاص لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بالعبادة والتوحيد.

فهذه الآية -ولها نظائر كثيرة جدًّا في كتاب الله- تركها المصنف مراعاة للاختصار في هذه الرسالة، كلها تشهد وتدل علىٰ أن المشركين كانوا يُقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

ويأتي هنا سؤال قرَّر من خلاله المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه القاعدة: هل إقرار المشركين بأن الخالق الرازق المنعم المالك هو الله، هل هذا الإقرار أدخلهم في التوحيد والإسلام؟ هل كانوا بهذا الإقرار موحدين مسلمين؟ أم هم مع هذا الإقرار مشركون بالله كفار؟ وانظر الجواب علىٰ هذا السؤال في قوله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

ما معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾؟ أي: خالقًا رازقًا مالكًا مدبرًا متصرفًا ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ أي: إلا وهم مشركون معه غيره في العبادة، يقرُّون بأنه الخالق ولكن يدعون غيره، ويتوكلون علىٰ غيره، ويذبحون لغيره، ويصرفون أنواعًا من العبادة لغيره، هذا هو معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وأيضًا قوله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢]؛ ما معنىٰ قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ والخطاب للمشركين الذين اتخذوا الأنداد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، تعلمون ماذا؟

تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله، لا رازق لكم غير الله، لا مدبر للأمر غير الله، أنتم تعلمون ذلك، والشواهد علىٰ أنهم يعلمون ذلك هاهي أمامنا من كتاب الله: من يملك السمع والأبصار؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يدبر الأمر؟

من يخرج الحي من الميت؟ كل ذلك يجيبون قائلين: الله.

إذن هم يعلمون أن الذي يخلق ويرزق ويُنعم ويدبر ويُحيي ويميت ويتصرف، يعلمون أن الفاعل لذلك والمُوجد لذلك والخالق لذلك هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، ليس له شريك في ذلك.

لكن هنا ينبغي أن نفهم من هذه القاعدة العظيمة التي ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن إقرار المرء بأن الخالق، الرازق، المنعم، المتصرف، هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، هذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحدًا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، بل لا يكون موحدًا لله إلا إذا أتىٰ بِلازِمه؛ ألا وهو إفراد الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بالعبادة وإخلاص الدين له، كما قال ربنا -جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وكما قال -جَلَّ وَعَلَا-: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]؛ أي: اعبدوا الرب الذي تفرَّد بالخلق والرزق والملك والإحياء والتدبير والتصرف، أَفرِدوه وحده -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بالعبادة.

ولهذا كانت هذه الحقيقة التي قررها القرآن واهتدىٰ إليها بعض المشركين كانت سببًا لهدايتهم وتركهم لعبادة الأوثان، وتخلُّصهم من عبادة الأصنام التي لا تملك شيئًا، لا ضرًّا ولا عطاءً ولا نفعًا.

مثل قصة عمرو بن الجموح -وكان سيِّدًا في قومه-: «وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنمًا من خشب في داره يقال له مناة ، كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلهًا يعظمه ويظهره، فلما أسلم فتيان

بني سلمة، ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل كانوا يدلجون بالليل علىٰ صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكسًا علىٰ رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا علىٰ إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتىٰ إذا وجده غسله وطيبه وطهره ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.

فإذا أمسىٰ ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذىٰ، فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسىٰ فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرىٰ، فإن كان فيك خير فامتنع، هذا السيف معك.

فلما أمسىٰ ونام عمرو عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر من عذر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتىٰ إذا وجده في تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من [رجال] قومه فأسلم برحمة الله، وحسن إسلامه»[1].

يقول الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تتقون الله؟ كيف تعبدون أحجارًا أو أشجارًا لا تملك لنفسها ضرًّا ولا منعًا ولا عطاءً ولا خفضًا ولا رفعًا، كيف تعبدون هذه الأشياء؟!

---

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٠٢).

ثم هنا يأتيك سؤال مهم لأنه سيأتي فيه قاعدة مهمة عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل الشرك الذي حرَّمه الله ﷻ هو عبادة الأحجار والأشجار فقط، أم عبادة كل شيء سوىٰ الله؟

مثلًا: من عَبَدَ مَلكًا من الملائكة، هل يكون مشركًا أو لا؟ من عَبَدَ نبيًّا من الأنبياء كعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو غيره من الأنبياء، هل يكون بذلك مشركًا أم لا؟

هذه مسألة مهمة، وسيأتي تقريرها وذكر الدلائل عليها من كتاب الله في قاعدة مهمة جدًّا عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إذن هذه القاعدة -القاعدة الأولىٰ- قرَّر فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن إقرار العبد بأنَّ الخالق الرَّازق المُنعم المتصرف المدبر هو الله، هذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحدًا، بل لابد مع ذلك أن يُقرَّ وأن يأتي بلازم ذلك وهو توحيد الله ﷻ بالعبادة وإخلاص الدين له ﷻ.

* * *

ثمَّ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

القاعدة الثانية

أَنَّهُم يَقُولُونَ: مَا دَعَونَاهُم وَتَوَجَّهنَا إِلَيهِم إِلَّا لِطَلَبِ القُربَةِ وَالشَّفَاعَةِ.

فَدَلِيلُ القُربَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ:

١- شَفَاعَةٌ مَنفِيَّةٌ.

٢- وَشَفَاعَةٌ مُثبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ المَنفِيَّةُ: مَا كَانَت تُطلَبُ مِن غَيرِ اللهِ فِيمَا لا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ المُثبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالمَشفُوعُ لَهُ: مَن رَضِيَ اللهُ قَولَهُ وَعَمَلَهُ بَعدَ الإِذنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ

عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشرح

وهذه هي القاعدة الثانية، وهي قاعدة عظيمة ومهمة جدًّا، وهي متممة ومكملة للقاعدة الأولىٰ، وذلك أننا عرفنا في القاعدة الأولىٰ: أن المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وأن هذا لم يدخلهم في الإسلام.

إذن يأتي سؤال يطرح نفسه، إذا كانوا يُقرُّون بأن الذي يخلق ويرزق ويُنعم ويتصرف ويُدبر الأمر هو الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، فلماذا يعبدون هذه الأصنام التي يُقرُّون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تعطي ولا تمنع؟!

وهم يُقرُّون كذلك أنها لا تخلق ولا تملك ولا ترزق ولا تدبر الأمر؛ كما هو واضح في الدليل الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القاعدة الأولىٰ.

يأتي الجواب في هذه القاعدة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَنَّهُم يَقُولُونَ: مَا دَعَونَاهُم وَتَوَجَّهنَا إِلَيهِم إِلَّا لِطَلَبِ القُربَةِ وَالشَّفَاعَةِ»؛ المشركون يقولون: نحن لم نتجه إلىٰ هذه الأصنام ولم نتوجه إلىٰ هذه الأصنام لأنها تخلق أو لأنها ترزق أو لأنها تُحيي، هذه أمور ليست إلا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، نحن لم نعبدها إلا للقربة والشفاعة.

القربة: أي: لتكون وسيلة لنا عند الله، لتكون واسطة لنا عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، نتوسَّط بها إلىٰ الله، نطلب منها أن تقربنا إلىٰ الله، فنعبدها من أجل أن

تكون واسطة لنا عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، تقربنا وتُدنينا منه ﷻ.

ولهذا قال: «أَنَّهُم -أي: المشركون- يَقُولُونَ: مَا دَعَونَاهُم وَتَوَجَّهنَا إِلَيهِم إِلا لِطَلَبِ القُربَةِ وَالشَّفَاعَةِ».

وقد عرفنا أن المصنف التزم في بداية هذه القواعد أن يذكر دليلها من القرآن، لا يأتي بشيء من عنده؛ وإنما يذكر لك الأمر مضمومًا إليه دليله من القرآن، فهنا ذكر القاعدة الثانية وهي: أن المشركين كانوا يقولون أننا إنما دعونا هذه الأصنام ورجوناها وتوجَّهنا إليها من أجل القربة والشفاعة.

قال: «فَدَلِيلُ القُربَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا ...﴾»، الآن يأتيك السبب: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، لا لكونها خالقة، ولا لكونها رازقة، ولا لكونها مدبِّرة، هذه أمور لا تملكها، هم يعتقدون أنها لا تملك شيئًا من ذلك.

﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ أي: من أجل أن تُقرِّبنا إلىٰ الله ﷻ؛ يقولون: نحن أهل ذنوب، وأهل خطايا وأهل إسراف علىٰ أنفسنا، وهذه فاضلة وكريمة ولها منزلة ومكانة عند الله، فنحن نعبدها ونتوجه إليها من أجل أن تقربنا إلىٰ الله ﷻ.

قال: «دَلِيلُ القُربَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر:٣]»، سمَّىٰ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- هذه

الأمور التي يمارسها هؤلاء ويقومون بها كفرًا بالله -جَلَّ وَعَلَا- (اتخاذ الأنداد والوسائط بينهم وبين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- من أجل أن تقربهم إلىٰ الله ﷻ).

إذن هذا الأمر الأول الذي أشار إليه المصنف وهو: القربة؛ أي: أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام من أجل القربة، أي: من أجل أن تقربهم من الله ﷻ .

الأمر الثاني هو: الشفاعة، والدليل علىٰ أنهم عبدوها لتكون شافعة لهم عند الله ﷻ : «قَولُ اللهِ ﷻ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]»؛ أي: نحن عبدنا هذه التي لا تضر ولا تنفع من أجل أن تكون شافعة لنا عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

إذن هذه قاعدة مهمة ينبغي أن يفهمها المسلم حتىٰ لا يُلبَّس عليه الأمر وحتىٰ لا يقع في الشرك من حيث أراد الحق والهدىٰ، وحتىٰ لا يأتي بعض المبطلين ويُلبِّسون عليه هذه الحقيقة ويُوقعونه في الشرك بالله من حيث أراد لنفسه الخير والرشاد، ويقولون له: هذه الأصنام أو هذه المعبودات أو هذه القباب والأضرحة إنما تُدعىٰ ويُتوجَّه إليها من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله ﷻ ، تقربنا إليه زلفىٰ.

يقال له: هذا الأمر هو الذي لأجله عبد الكفار المشركون الأصنام وتوجهوا إليها بالدعاء والرجاء، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

ثم انطلق المصنف من هذا الموضع ليُبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الشفاعة نوعان، حتىٰ لا يلتبس باب الشفاعة وأمرها عند المسلم.

قال: «وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثبَتَةٌ».

منفية؛ أي: نفاها الله تعالىٰ، مثبتة؛ أي: أثبتها الله ﷻ.

لأن المسلم عندما يقرأ القرآن الكريم يجد أن الآيات التي جاء فيها ذكر الشفاعة تجد أن في القرآن: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

وإذا كان الأمر كذلك فالواجبُ علينا أن ننفي من الشفاعة ما نفىٰ الله، وأن نثبت منها ما أثبته الله، أما من يثبت شفاعة نفاها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فهذا عين الضلال والباطل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثبَتَةٌ؛ فَالشَّفَاعَةُ المَنفِيَّةُ: مَا كَانَت تُطلَبُ مِن غَيرِ اللهِ فِيمَا لا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ».

الشفاعة المنفية؛ -أي التي نفاها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في القرآن- واجب علىٰ كل مسلم أن يعرفها، من أجل أن يحذرها وأن يجتنبها وألَّا يقع فيها؛ لأن الله نفاها وأبطلها.

وهي كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا كَانَت تُطلَبُ مِن غَيرِ اللهِ فِيمَا لا يَقدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ»؛ لو قال قائل لمخلوقٍ كائنًا من كان: أسألك أن تُدخلني الجنة أو أن تجيرني من النار، أو أن تثبِّتني علىٰ الإيمان، أو أن تعصمني من الخطأ، أو أن تهديني سواء السبيل، أو أن تجنبني مضلات الفتن، أو أن تصلح لي ذريتي، أو أن تمن علي بالزوجة الصالحة، أو تمن علي بالذرية الصالحة، أو أن تكتب لي رزقًا وملكًا...إلخ، مَن قدَّم هذه الطلبات لمخلوق من المخلوقات كائنًا مَن

كان، مهما علت درجته وبلغت منزلته -(ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله)- هذه شفاعة نفاها الله في القرآن، ومضىٰ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ طريقته يذكر الأمر بدليله، قال: «وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]»، هنا: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ نفي، هذه شفاعة نفاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأبطلها، وهي ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

لو وقف رجل أمام ضريح من الأضرحة أو قبة من القباب، وقال باكيًا راجيًا: يا سيدي فلان، أو يا فلان أرجو أن تمن علي بالولد والذرية، أنا عقيم، مثل ما كان بعض الجاهليين؛ تطوف المرأة حول شجرة وتقول: (يا فحل الفحول أريد ولدًا قبل الحول)؛ يعني: قبل أن تتم السَّنة، (يا فحل الفحول) فمن نادىٰ شجرة، أو ضريحًا، أو قبة، أو وليًّا، أو نبيًّا، أو ملكًا أو غير ذلك، يطلب منه الذرية الصالحة.

الأنبياء عندما كانوا يطلبون الذرية لأنفسهم، مِمَّن يطلبونها؟ اقرءوا ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، في قصة إبراهيم عليه السلام، وقصة زكريا عليه السلام، وقصص كثيرة، فالأنبياء ما كانوا يطلبون إلَّا من الله تعالىٰ.

بعض الناس يخاطب بعض المقبورين يقول: يا كاشف الغم، يا مجيب المكروب، يا مغيث الملهوف، يا جابر الكسير أنا طريح عند بابك، أنا لائذ بجانبك إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي، يناجي مخلوقًا!

الله تعالىٰ يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ

﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

هذه أمور لله ﷻ، لا يُلجَأ فيها إلَّا إليه ﷻ.

إذا كان الناس في الفُلك وتلاطمت بهم الأمواج وأدركهم الغرق، مَن الذي ينقذهم؟ مَن الذي يوقف الرياح ويهدئ الأمواج ويسكِّن السفينة؟ الله رب العالمين.

والله ذكر عن أهل الشرك قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]؛ يعرفون وهم في تلاطم الأمواج وفي الشدائد أن الذي ينجي من الشدائد هو الله ليست الأصنام، فلهذا كانوا يخلصون لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في الشدة ويشركون في الرخاء.

مع أن بعض المشركين في الأزمان المتأخرة الذين تعلقوا بغير الله من الأنداد والأولياء والقباب حتىٰ في الشدائد وفي الكربات يفزعون إلىٰ تلك المعبودات.

ومما يذكر في هذا أن جماعة كانوا في سفينة وكان معهم رجل مسن -علىٰ التوحيد والفطرة-، فبدأت الأمواج تتلاطم، وبدأ كلٌّ يهتف بمعبوده: يا سيدي فلان، يا مولاي فلان، أدركني يا فلان... يناجون المخلوقين، التفت هذا الرجل وإذا كل من علىٰ السفينة ليس فيهم من ينادي ويدعو الله تعالىٰ، فمد يديه وقال: يا رب أغرق.. أغرق؛ فما علىٰ السفينة من يعبدك.

فالمشركون الذين بُعث فيهم النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- في مثل هذه

الحالة، ما كانوا يلتجئون في الشدة إلَّا إلىٰ الله ﷻ، لهذا قال الله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

إذن الشفاعة المنفية: ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

ومثال آخر: ما يقوم به بعض الزوار لما يأتون المدينة النبوية ومعهم خطابات من بعض الناس في بلده موجهة إلىٰ النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-، أنا اطلعت شخصيًّا علىٰ شيء منها، أحدهم قرأت كلامه بلفظه، يقول: يا رسول الله، يا سيدي، يا مولاي... يا كذا -ألقاب يذكرها- أنا عبد كسير وفقيرٌ ذليل ومحتاج كذا، وأنا لائذ بك وملتجئ إليك، فلا ترد طلبي ولا ترد حاجتي، ثم ذكر حاجته؛ أنه يريد زوجة صالحة، ويريد (فيلا) جميلة، ويريد مالًا، وذكر أشياء، هذه كتَبها يطلبها من النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-، وفي النهاية قال: وعنواني في المكان الفلاني.

أين هذا الكاتب لهذه الورقة من قوله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لنبيِّه؟! ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة:١٨٦]؟

وهنا لطيفة عجيبة في هذه الآية من سورة البقرة، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ويُتبع ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم كذا؛ لأنه -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- واسطة في إبلاغ الدين ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ ﴾ [البقرة:٢٢٠]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

هنا في هذه الآية قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ لم يقل: (قل)، ﴿ وَإِذَا

﴿سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأن التوجه إلىٰ الله توجه بلا واسطة.

أينما تكون في الدنيا واحتجت إلىٰ حاجة سل الله بدون واسطة، لا تبحث عن وسطاء، مباشرة اتجه إلىٰ الله، اسأله مباشرة، ارفع يديك أينما كنت في الدنيا، حتىٰ لو كنت في صخرة مُطبقة عليك في مكان مظلم توجه إليه ﷻ، يراك رب العالمين، ويطلع عليك، ويكشف كربتك، ويزيل همك، ويرزقك من حيث لا تحتسب؛ لأن الأمور كلها بيده والملك ملكه والخَلق خَلقه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

والمثال الذي ذكرته في الخطاب الذي أشرت إليه، يندرج تحت الشفاعة المنفية.

ما نخلط الأمور ونقول دلَّت الأدلة علىٰ أنه -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- شفيعٌ للناس، ولذلك تأمل هذا الحديث العظيم:

عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ -أَو كَلِمَةً نَحوَهَا- اشتَرُوا أَنفُسَكُم، لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا، يَا بَنِي عَبدِ مَنَافٍ لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ لَا أُغنِي عَنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئتِ مِن مَالِي لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا»[1].

قال: «وَالشَّفَاعَةُ المُثبَتَةُ -أي: التي أثبتها الله في القرآن- هِيَ الَّتِي تُطلَبُ مِنَ

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

اللهِ»، انظر جمال العلم وجمال البيان والنصيحة.

«الشَّفَاعَةُ المُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالمَشفُوعُ لَهُ: مَن رَضِيَ اللهُ قَولَهُ وَعَمَلَهُ بَعدَ الإِذنِ»؛ الشفاعة المثبتة هي التي تُطلب من الله، والشافع يطلبها منه ﷻ؛ لأن الله قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]؛ أي: الشفاعة لله.

من أراد أن يشفع لابد أن يأذن الله له، بدون إذن الله لا يكون ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، فإذن هي ملكٌ لله، وبيده -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

وأي أحد كائنًا من كان يريد أن يشفع عند الله لابد أن يأذن الله له بالشفاعة، هذا أمر.

وأمر آخر: من أراد لنفسه أن يكون الأنبياء والملائكة شفعاء له عند الله يطلبها ممن بيده الشفاعة لأنها بيده سبحانه، فمن أراد لنفسه أن يكونوا شفعاء له عليه أن يقول في طلبه ودعائه: يا رب، يا ألله -يسأل الله- شفِّع فيَّ أنبياءك، أو يقول: اللهم اجعل نبيك محمدًا ﷺ شفيعًا لي يوم القيامة، وهكذا نقول في دعائنا -نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، نقول: اللهم اجعل نبيك محمدًا ﷺ شفيعًا لنا يوم القيامة، اللهم اجعلنا ممن يشفع لهم نبيك ﷺ يوم القيامة، نسأل الله -جَلَّ وَعَلَا-، نطلب من الله؛ لأن الشفاعة مُلكٌ لله ﷻ.

وهي لا تكون إلَّا بإذنه للشافع ورضاه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عن المشفوع له:

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

فلو أن شخصًا كافرًا مشركًا يعبد الأوثان ومات علىٰ عبادتها، وشُفِع له عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، لا تنقذه هذه الشفاعة ولا يخرَج بها من النار، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

وفي «صحيح البخاري» قصة عظيمة جدًّا تهز القلوب هزًّا، وهي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع والده يوم القيامة ذكرها نبينا -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-: فعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَلقَىٰ إِبرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَومَ القِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبرَاهِيمُ: أَلَم أَقُل لَكَ لَا تَعصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَومَ لَا أَعصِيكَ، فَيَقُولُ إِبرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدتَنِي أَلَّا تُخزِيَنِي يَومَ يُبعَثُونَ، فَأَيُّ خِزيٍ أَخزَىٰ مِن أَبِي الأَبعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمتُ الجَنَّةَ عَلَىٰ الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبرَاهِيمُ مَا تَحتَ رِجلَيكَ؟ فَيَنظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلتَطِخٍ، فَيُؤخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلقَىٰ فِي النَّارِ»[1].

واقرأ في آخر سورة التحريم قول الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحريم:١٠]، فنبي الله نوح عليه السلام لم يغنِ عن ابنه شيئًا؛ لأنه كان كافرًا، ولم يغنِ عن زوجته شيئًا؛ لأنها كانت كافرة، وكذا نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يغنِ عن أبيه شيئًا؛ لأنه كان كافرًا.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٠).

فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع، ورضا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عن المشفوع له.

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّهُ قَالَ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **لَقَد ظَنَنتُ يَا أَبَا هُرَيرَةَ أَلَّا يَسأَلَنِي عَن هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنكَ، لِمَا رَأَيتُ مِن حِرصِكَ عَلَىٰ الحَدِيثِ، أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِن قَلبِهِ أَو نَفسِهِ**»[1].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعوَةٌ مُستَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعوَتَهُ، وَإِنِّي اختَبَأتُ دَعوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِن شَاءَ اللهُ، مَن مَاتَ مِن أُمَّتِي لَا يُشرِكُ بِاللهِ شَيئًا**»[2]، فقوله ﷺ: «**لَا يُشرِكُ بِاللهِ شَيئًا**»، فهي ليست لكل أحد؛ بل خاصة بأهل التوحيد.

ولهذا ففي موضوع الشفاعة ثلاثة فصول مهمة ينبغي أن تحفظها:

- الفصل الأول: أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله.

- الفصل الثاني: أن الشفاعة لا تكون إلا عمَّن رضي الله عنه (قوله وعمله).

- الفصل الثالث: أن الله ﷻ لا يرضىٰ إلا عن أهل التوحيد.

هذه ثلاثة فصول في الشفاعة احفظها ينفعك الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بها.

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩)، واللفظ له.

هذه الشفاعة بهذه الضوابط هي الشفاعة التي أثبتها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في القرآن.

قال المصنف: «وَالشَّفَاعَةُ المُثبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالمَشفُوعُ لَهُ: مَن رَضِيَ اللهُ قَولَهُ وَعَمَلَهُ بَعدَ الإِذنِ».

وجُمِع بين هذين الشرطين: الرضا والإذن في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع له، والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لا يرضىٰ إلا عن أهل التوحيد، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]».

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

القاعدة الثالثة

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِم؛ مِنهُم مَن يَعبُدُ المَلائِكَةَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الأَنبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الأَشجَارَ وَالأَحجَارَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ، وَقَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَم يُفَرِّق بَينَهُم، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال:٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمسِ وَالقَمَرِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧].

وَدَلِيلُ المَلائِكَةِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ﴾ [آل عمران:٨٠].

وَدَلِيلُ الأَنبِيَاءِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [المائدة:١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧].

وَدَلِيلُ الأَشجَارِ وَالأَحجَارِ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢٠].

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثِيِّ ﷺ قَالَ: «خَرَجنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ حُنَينٍ وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ، وَلِلمُشرِكِينَ سِدرَةٌ، يَعكُفُونَ عِندَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسلِحَتَهُم، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنوَاطٍ، فَمَرَرنَا بِسِدرَةٍ، فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجعَل لَنَا ذَاتَ أَنوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنوَاطٍ...»[1] الحَدِيثَ.

الشرح

هذه قاعدة أخرىٰ مهمة للغاية ويحتاجها كل مسلمٍ لمعرفتها وما يتعلق بها؛ لأن معرفة هذه القواعد -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وضبطها يكون -بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- صمام أمانٍ للمسلم من الوقوع في شبكة الشرك وحبائل أهله ومصائد الشيطان.

وقد جاء في التعوذات المأثورة عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ، عَالِمَ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفسِي وَشَرِّ الشَّيطَانِ وشِركِهِ»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٩٢)، وأبو داود (٥٠٦٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٠١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله ﷺ: (وشِركه)، روي علىٰ وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من الإشراك: أي: ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك بالله تعالىٰ.

=

وفي رواية: «وشَرَكه»؛ أي: حبائله وشباكه التي يضعها للناس ليُوقِعهم في الشرك بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

والشرك -كما كنا عرفنا- شبكة، له جوانب كثيرة ومجالات متعددة، ومن لم يكن في هذا الباب علىٰ أصولٍ ثابتة وقواعد راسخة ربما زلت به القدم في أخطر أمر وأعظم باب -والعياذ بالله-.

ولهذا ينبغي علىٰ كل المسلم أن يكون علىٰ عناية تامة ورعاية قوية لهذه القواعد التي قررها الإمام -رحمه الله تعالىٰ-، وذكر دلائلها وشواهدها من كتاب الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وسنة رسول الله ﷺ.

وهذه القواعد مرتبطة معانيها فيما بينها، يوضح بعضها بعضًا، وذلك كالآتي:

سبق معنا القاعدة الأولىٰ التي قررها المصنف -رحمه الله تعالىٰ- أن الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، كانوا يقرُّون بأن الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر للأمور هو: الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وحده، كانوا يقرُّون بذلك، وذكر الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- الدليل علىٰ ذلك من كتاب الله ﷻ، ولم يُدخلهم ذلك في الإسلام.

فعُلم بذلك أن مجرد الإقرار بأن الله الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر لشئون الخلائق ليس كافيًا وحده لدخول المرء في الإسلام، ما لم يعبد الله

=

والثاني: (شَرَكه) بفتح الشين والراء: أي: حبائله ومصايده، واحدها: (شَرَكة) بفتح الشين والراء، وآخره هاء». «الأذكار» (٧٨).

مخلصًا له الدين، وإذا كان يقرُّ بأن الله الخالق الرزاق المنعم المتصرف ولا يُخلص الدين له -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فهو مشرك بالله، كافر بالله العظيم.

ثم بعد ذلك ذكر -رحمه الله تعالىٰ- القاعدة الثانية؛ وهي أن المشركين الكفار عندما يُسألون: لماذا تعبدون هذه الأوثان وتدعونها من دون الله وأنتم تقرُّون أنها ليست خالقة ولا رازقة ولا منعمة ولا متصرفة، ولا تملك عطاء ولا منعًا، ولا خفضًا ولا رفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟

لماذا تعبدونها وأنتم تقرُّون أنها لا تملك شيئًا من ذلك؟

بل تقرُّون أنها نفسها مملوكة لله، خاضعة لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، مربوبة له ﷻ.

ولهذا؛ كانوا يحجون ويقولون في تلبيتهم في الحج: [لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك] هكذا يعتقدون: (تملكه): أي هو مملوك لك، هذا الشريك الذي جعلناه لك أنت يا الله تملكه، هو مملوك لك خاضع لك، (وما ملك): هو لا يملك، أي لا يملك لنفسه عطاء أو منعًا أو خفضًا أو رفعًا؛ فضلًا عن أن يملك ذلك لغيره، هم يقرُّون بذلك، فإذا سئلوا قيل لهم: لماذا تعبدونها وتدعونها وتتوجهون إليها وأنتم تعتقدون في قرارة نفوسكم أنها لا تملك، وأنها لا تخلق، وأنها لا ترزق؟ -والدليل علىٰ أنهم يقرُّون بذلك مرَّ معنا في القاعدة السابقة- فإذن لماذا تعبدونها؟ ماذا يقولون؟

يقولون: نحن نعبدها ونتوجه إليها لطلب القربة والشفاعة:

لطلب القربة؛ أي: من أجل أن تقربنا إلىٰ الله، نحن بُعداء عن الله بالذنوب

والمعاصي والخطايا والتفريط، فنحن نتوجه إليها لا لشيء إلا من أجل أن تقربنا إلىٰ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

ومن أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله، من أجل أن تكون شفيعًا لنا عند الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

هذه الممارسة التي يفعلها المشركون -والذي هذه خلاصتها- ماذا تسمىٰ في شرع الإسلام وفي دين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-؟

هل هم معذورون في هذا التوجيه الذي ذكروه؟

قالوا: نحن لا ندعوها لأننا نعتقد فيها أنها خالقة رزاقة، بل ندعوها لأجل أن تقربنا إلىٰ الله زلفىٰ، هل هذا مُخوِّل ومُسوِّغ لإعفائهم من تبعة ذلك العمل وتلك الممارسة؟

حاشىٰ وكلا؛ بل هم بذلك كفار مشركون، ولهذا قاتلهم النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-، واستباح أموالهم ودماءهم ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

فإذن هذه القاعدة الأولىٰ والقاعدة الثانية، ثم تأتي قاعدة ثالثة مهمة جدًّا، وهي تَنبَني علىٰ القاعدتين السابقتين، ألا وهي:

هل الشرك الذي ذمَّه الله وحذَّر منه وعاب أهله وتوعدهم وتهددهم، هل هو خاص بمن عبد صنمًا؟ أو توجه إلىٰ حجر؟ هل هو خاص بذلك، أو أنه شامل لكل ما عُبد من دون الله أيًّا كان ومهما كانت صفته؟

لأن بعض من ابتُلوا بالباطل والتوجه إلىٰ غير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- بالدعاء والرجاء والطلب والسؤال وإنزال الحاجات والطلبات والرغبات، إذا تُليت عليه مثل هذه الآيات لوعظه وتنبيهه وتذكيره وتحذيره مما هو عليه من ضلالٍ وباطل، يقول: هذه الآيات التي تُتلىٰ في القرآن تختص بمن توجه إلىٰ حجر أو شجر، أما نحن لم نتوجه لا إلىٰ حجر ولا إلىٰ شجر -مثل هؤلاء المشركين- نحن توجهنا إلىٰ أولياء صالحين، أو إلىٰ أنبياء مقربين، أو إلىٰ ملائكة، فكيف تُتلىٰ علينا هذه الآيات ونوعظ بها وهي لا تتناول العمل الذي نقوم به؟

لأن الآيات تتعلق بمن عبد الأصنام: اللات، العزىٰ، مناة، هبل... إلخ، أما الذي يتوجه إلىٰ ولي من الأولياء، أو صالح من الصالحين، أو نبي من الأنبياء أو نحو ذلك، هذه الأدلة والنصوص لا تتناوله ولا علاقة لها به، هكذا يقولون ويزعمون!

فتأتي هذه القاعدة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليُرسي هذا الأمر ويجلِّيه، ويزيل الغبش الذي قد يصاب به بعض الناس، ويُبتلىٰ به بعضهم فيدخلون في وحل الشرك وشبكة الباطل من حيث يظنون أنهم لم يقعوا في هذه الهوة السحيقة: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، لا يشعر أنه وقع في هذه الهوة السحيقة -والعياذ بالله-، فتأتي هذه القاعدة لتجلِّي هذا الأمر.

ولهذا ينبغي أن نُرعي هذه القاعدة بالنا واهتمامنا، وأن نحسن فهمها وضبطها لأنها مهمة جدًّا في هذا الباب.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في القاعدة الثالثة: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِم**»، أي: لم تكن عبادتهم مختصة بمعبودات معينة، مثل: الأحجار أو الأصنام، بل كانوا متفرقين في عبادتهم، يعبدون أشياء كثيرة جدًّا.

فَصَّل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ثم ذكر علىٰ كل ما ذكره من تفصيل الدليل عليه من القرآن، قال: «**مِنهُم مَن يَعبُدُ المَلائِكَةَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الأَنبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الأَشجَارَ وَالأَحجَارَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ**»:

فالنبي ﷺ بُعث في أقوام يشركون، وشركهم ليس منحصرًا في شرك معين من أنواع الشرك كعبادة الأصنام؛ بل إن شرك من بُعث فيهم -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- شرك متنوع، والأبواب التي سلكها هؤلاء المشركون أبواب متفرقة، منهم من يعبد الملائكة، منهم من يعبد الأنبياء، منهم من يعبد الأولياء والصالحين، منهم من يعبد الأشجار والأضرحة ونحو ذلك، وكل هؤلاء ظهر عليهم النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- مُعلنًا دعوة التوحيد -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيه- والدعوة إلىٰ الإخلاص لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ونبذ الشرك أيًّا كانت صفته وكان نوعه[1].

فهذه القاعدة تأتي جوابًا وإزالةً لتلك الشبهة التي قد يروِّجها أهل الباطل.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «حقيقة التوحيد: أن نعبد الله وحده، فلا يُدعىٰ إلا هو، ولا يُخشىٰ ولا يُتَّقىٰ إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وألَّا نتخذ الملائكة والنبيين أربابًا، فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم». «منهاج السنة النبوية» (٣ / ٤٩٠).

وتقرير القاعدة: أنَّ من ظهر عليهم -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-، وبُعث فيهم كانوا متفرقين في العبادة.

وتقول هنا: هات الدليل علىٰ ذلك، فيأتي المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بالدليل علىٰ كل ذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

أولًا: قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]».

الآية فيها استشهاد لقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ»؛ أي أجمعين بأنواع الشرك المختلفة التي كانوا عليها، فهؤلاء كلهم قاتلهم، لم يفرِّق -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- بين من عبَد حجرًا أو عبد نبيًّا (كعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، أو ملَكًا من الملائكة (كجبريل أو غيره من الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، لم يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كلهم يشملهم قول الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، قاتلهم النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- أجمعين.

دعاهم إلىٰ هذا الإسلام، وبعث الدعاة، وأرسل البعوث، وأرسل الرسل ودعا هؤلاء؛ دعا الذين يعبدون الملائكة، ودعا الذين يعبدون النجوم، ودعا الذين يعبدون الأنبياء، ودعا الذين يعبدون الأصنام، كل أولئك دعاهم النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- إلىٰ نبذ هذا الشرك، وإلىٰ إخلاص العبادة لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

ثم بدأ يسوق الأدلة دليلًا دليلًا علىٰ ما ذكر سابقًا من تفرق المشركين وتنوع شركهم.

قال: «وَدَلِيلُ الشَّمسِ وَالقَمَرِ»؛ أي: والدليل علىٰ أن من الناس من كان يعبد الشمس والقمر ممن ظهر عليهم النبي ﷺ وبُعث فيهم، قوله الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: لأن هناك من كان يعبد الشمس والقمر.

بل إن من رعاية نبينا -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- للتوحيد وحفاظه لجانبه وسدِّه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيه- لذرائع الشرك نهىٰ أمة الإسلام -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيه- أن يُصلُّوا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مخلصين عند وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن هذا الوقت كان عُبَّاد الشمس يتحرون عبادتها فيه، عند أول طلوع الشمس وعند وقت الغروب، عُبَّاد الشمس كانوا يتحرون هذين الوقتين، فيعبدون الشمس في هذين الوقتين، ولهذا جاء النهي الغليظ والمؤكد عن نبينا -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- من أن نصلي لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مخلصين في هذين الوقتين.

فقال -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام-: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبحِ، ثُمَّ أَقصِر عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ تَطلُعَ الشَّمسُ حَتَّىٰ تَرتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطلُعُ حِينَ تَطلُعُ بَينَ قَرنَي شَيطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسجُدُ لَهَا الكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشهُودَةٌ مَحضُورَةٌ حَتَّىٰ يَستَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمحِ، ثُمَّ أَقصِر عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسجَرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقبَلَ الفَيءُ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشهُودَةٌ مَحضُورَةٌ حَتَّىٰ تُصَلِّيَ العَصرَ، ثُمَّ أَقصِر عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّىٰ تَغرُبَ الشَّمسُ، فَإِنَّهَا تَغرُبُ بَينَ قَرنَي شَيطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسجُدُ لَهَا الكُفَّارُ»[1].

(١) رواه مسلم (٨٣٢).

وهذا فيه أن الشيطان له فتنة في هذا الوقت لصرف القلوب عن التوحيد إلىٰ الشرك، والتعلق بهذه المخلوقات الكبيرة، البديعة، العجيبة، العظيمة التي خلقها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-.

وذلك لأنه عندما يضعف الإيمان في بعض القلوب قد تتعلق بمثل هذه المخلوقات الكِبار، وتلجأ إليها، فتدهشها الشمس بغروبها وطلوعها، فتتوجه إليها بحاجاتها ورغباتها، فقطع النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- الطريق وسدَّ ذريعة الشرك، ونهىٰ أن تُتَحرَّىٰ العبادة في هذين الوقتين: وقت طلوع الشمس، ووقت غروبها، ولو كان الإنسان لا يقصد بعبادته إلَّا وجه الله مخلصًا له، فإن النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- قد نهاه عن العبادة في هذين الوقتين، وجاء عنه في ذلك أحاديث كثيرة، كل ذلك محافظة علىٰ التوحيد وصيانة لجنابه وسدًّا للذرائع التي تفضي إلىٰ الشرك بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، وأيضًا ربأ -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- بالأمة أن يكون فيها شيء من المشابهة ولو في الصورة الظاهرة لعَبَدة هذه المخلوقات (الشمس والقمر)، فنهىٰ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيه- عن العبادة في هذين الوقتين.

فهذا من الدلائل والشواهد البيِّنات أن من بُعث فيهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيه- كان منهم من شركه بالله عبادةٌ للشمس وللقمر.

وما الدليل علىٰ أن منهم من كان يعبد الملائكة؟

قال: «قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]».

أي: من دون الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، فهذا شاهد ودليل علىٰ أن من الناس من

اتخذ الملائكة أربابًا، وعبدوها معه -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، ودعوهم وسألوهم وعرضوا عليهم حاجاتهم وطلباتهم، فكان من الناس من عبد الملائكة، وهم جند مكرمون وعباد مسخرون، لا يستحقون من العبادة ولا مقدار ذرة.

ولهذا؛ في سياق إبطال الشرك في القرآن الكريم في سورة سبأ ذكر الله ﷻ ضعف الملائكة، مُبيِّنًا -جَلَّ وَعَلَا- بذلك أنها مع ضخامة أجسامها وقوتها، وعظم قدرتها التي منحها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إياها، فهي ضعيفة مخلوقة مربوبة لا تستحق من العبادة شيئًا، وتأمل هذا المعنىٰ العظيم في الآيات الواردة لإبطال الشرك، في قول الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ -أي: الملائكة- ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

يُفسِّر هذه الآية قول نبينا -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- في الحديث الصحيح: «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحي سَمِعَ أَهلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلصَلَةً كَجَرِّ السِّلسِلَةِ عَلَىٰ الصَّفَا، فَيُصعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَأتِيَهُم جِبرِيلُ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُم جِبرِيلُ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم. قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا جِبرِيلُ، مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الحَقَّ؛ فَيَقُولُونَ: الحَقَّ الحَقَّ»[1].

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٩٣).

هذه الملائكة الضخمة الأجسام العظيمة القوة والقدرة إذا تكلم الله بالوحي خرَّت صعقة، «وهو أنه تعالىٰ إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتىٰ يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما»[1].

فهي مخلوقة ضعيفة، مُسخَّرة مربوبة لله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ولكن لا يستحقون من العبادة أي شيء، ولهذا قال الله ﷻ في شأن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلما بيَّن أنه لا حَقَّ لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئًا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضًا أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوىٰ، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ علىٰ سبيل الفرض والتنزل ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وأي ظلم أعظم من ادِّعاء المخلوق الناقص، الفقير إلىٰ الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟»[2].

وقد وُجد في الناس من عبدهم، وتوجه إليهم في طلباته ورغباته، وجعلهم واسطة بينه وبين الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في عرض حاجاته، فبُعث النبي ﷺ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥١٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٢١).

لإبطال هذا الشرك -اتخاذ الملائكة أربابًا وأندادًا وشركاء لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- في العبادة-.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليل الأنبياء؛ أي: الدليل علىٰ أن من المشركين الذين بُعث فيهم ﷺ من كان يعبد الأنبياء فذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦]، إذا كان من المشركين الذين بُعث فيهم ﷺ من كان يعبد الأنبياء من دون الله ﷻ، مثل من كانوا يعبدون عيسىٰ ويتوجهون إليه بالدعاء والطلب والرغبات ويعبدون أمه، وهي ليست نبيَّة وإنما هي صالحة من الصالحات[1]، ومن خيار نساء العالمين.

فكانوا يعبدون الأنبياء والصالحين: الأنبياء مثل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والصالحين مثل أمه، كانوا يعبدونها من دون الله، وجعلوهما شريكَيْنِ لله ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]؛ جعلوا المستحقين للعبادة ثلاثة: (الله ﷻ، وعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمه مريم)، وعبدوا هؤلاء الثلاثة كلهم، عبدوا الله، وعبدوا معه عيسىٰ، وعبدوا معه أمه.

إذن من بُعث فيهم -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- منهم من كان شركه عبادةً للأنبياء وعبادةً للصالحين.

---

(١) قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد نقل إمام الحرمين إجماع العلماء علىٰ أن مريم ليست نبية». «الأذكار» (ص١١٩)، وانظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/ ٤٧١).

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧]».

هذه الآية دليل واضح علىٰ أنَّ من بُعث فيهم -عليه الصَّلَاة والسَّلَام- منهم من كان يعبد الصالحين من دون الله ﷻ، وذلك أن معنىٰ الآية وهي: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ تتعلق ببيان حال طائفة من المشركين، واقرأ الآية التي قبلها، وهي قول الله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾؛ أي: أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون المتخذون الأنداد قومٌ هداهم الله ﷻ وعبدوا الله وأخلصوا الدين له -جَلَّ وَعَلَا-، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾، «قال العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيرًا.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾، روىٰ البخاري، من حديث سليمان بن مِهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعمر، عن عبد الله في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾، قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفي رواية: قال: كان ناس من الإنس،

يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم.

وقال قتادة: عن معبد بن عبد الله الزِّمَّاني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجِنِّيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية»[1].

إذن الآية واضحة في إنكار شرك من كان شركه بعبادة الصالحين والأولياء.

يُقال لمن عبد وليًّا أو عبد صالحًا: إن هذا الذي تعبده وتلجأ إليه هو نفسه عبدٌ لله، يرجو الله، ويطمع في مغفرته ورحمته، وإن كان مات فإن هذه الأمور -رجاء الرحمة والعبادة وابتغاء الوسيلة- انقطعت بموته، «**إِذَا مَاتَ الإِنسَانُ انقَطَعَ عَنهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلمٍ يُنتَفَعُ بِهِ، أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ**»[2]، لا يستطيع أن يقوم بعبادة ولا يستطيع أن يقوم بدعاء أو برجاء أو بخوف أو بأي أمر من الأمور التي هي مجال الإنسان للقيام بها في حياته الدنيا، أما إذا مات انقطع عمله، لا يستطيع أن يدعو لنفسه ولا لغيره، ولهذا قال -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما قالت: وَا رَأسَاه، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاكِ لَو كَانَ وَأَنَا حَيٌّ، فَأَستَغفِرُ لَكِ وَأَدعُو لَكِ**»[3]؛ يعني: وأنا علىٰ قيد الحياة استغفرت لك، أما بعد الموت لا يستغفر ﷺ لأحد، هو ﷺ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٨٨).

(٢) رواه مسلم(١٦٣١).

(٣) رواه البخاري (٥٦٦٦).

ولا غيره من الذين توفاهم الله ﷻ، ولهذا قال: «ذَاكِ لَو كَانَ وَأَنَا حَيٌّ».

أما ما يستدل به بعض الناس من أن النبي ﷺ قال: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم؛ فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم»[1].

هذا حديث غير صحيح، يستدل به بعض الناس ويتركون الحديث الذي في «صحيح البخاري»، الذي يقول فيه النبي -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلَام- لعائشة رضي الله عنها: «ذَاكِ لَو كَانَ وَأَنَا حَيٌّ»؛ أي: بعد الموت لا يستغفر لأحد.

ولهذا؛ الصحابة بعد موته قالوا -كما جاء عن عمر رضي الله عنه-: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسقِنَا»[2]، والمراد الدعاء: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا ﷺ؛ ففي زمن النبي ﷺ ما كانوا يتوسلون بالعباس أو بغيره، كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ، يدعو لهم هو -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِ- ويؤَمِّنون علىٰ دعائه، أما بعد موته انقطع هذا الأمر، لقوله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنسَانُ انقَطَعَ عَنهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ ...».

وما دليل عبادة الأشجار والأحجار؟

قال: «قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]».

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (١٩٢٥)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٩٧٥).

(٢) رواه البخاري (١٠١٠).

هذه معبودات كان يعبدها المشركون ويتوجهون إليها؛ اللَّات والعزَّىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكانت (اللات) صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها علىٰ من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالىٰ، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وحكي عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرءوا (اللاتّ) بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا علىٰ قبره فعبدوه»[1].

فلما مات بنوا علىٰ قبره وعبدوه، وجعلوه واسطة لهم بينهم وبين الله -والعياذ بالله-، قالوا: لأن هذا رجل معروف بيننا بهذا الكرم وهذه الضيافة، فعبدوا قبره، وقيل: عبدوا الصخرة التي كان يعجن عليها السَّويق، قالوا: هذه صخرة فاضلة مميزة لها خاصية، سنوات طويلة يُعجن عليها السَّويق، فما أجمل أن تكون واسطة بيننا وبين الله.

والعُزَّىٰ[2]: قيل: حجر أبيض، وقيل: شجرة كان يقصدها المشركون، وكان يزيد الشرك والتعلق بهذه الشجرة أن جنية كانت مختفية وإذا جاءوا عند هذه

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٥).

(٢) «جامع البيان في تأويل القرآن» (٢٢/ ٥٢٣).

الشجرة خاطبتهم الجنية فيُخدعون بذلك؛ لأن الشجر لا يُعرف أنه يخاطب الناس، فيُخدعون بذلك ويُستدرجون، فتخاطبهم هذه الجنية وتذكر لهم أمورًا، وربما سألوها عن مفقود أو ضائع فأشارت إلىٰ مكانه أو دلتهم علىٰ موضعه أو نحو ذلك، ففُتنوا فصاروا يتوافدون عليها من الأنحاء العديدة يعبدون هذه الشجرة، حتىٰ بعث النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد ﷺ فقطع الشجرة وقتل الجنية.

عَن أَبِي الطُّفَيلِ قَالَ: «لَمَّا فَتحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ إِلَىٰ نَخلَةٍ، وَكَانَت بِهَا العُزَّىٰ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَت عَلَىٰ ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ البَيتَ الَّذِي كَانَ عَلَيهَا، ثُمَّ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخبَرَهُ، فَقَالَ: **ارجع فَإِنَّكَ لَم تَصنَع شَيئًا**، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَت بِهِ السَّدَنَةُ وَهُم حَجَبَتُهَا، أَمعَنُوا فِي الجَبَلِ، وَهُم يَقُولُونَ: يَا عُزَّىٰ يَا عُزَّىٰ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امرَأَةٌ عُريَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعرَهَا تَحتَفِنُ التُّرَابَ عَلَىٰ رَأسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيفِ حَتَّىٰ قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخبَرَهُ فَقَالَ: **تِلكَ العُزَّىٰ**»[1].

«وأمَّا (مناة) فكانت بالمُشَلَّل -عند قُدَيد، بين مكة والمدينة-، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويُهلُّون منها للحج إلىٰ الكعبة، وروىٰ البخاري عن عائشة نحوه، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها»[2].

---

(١) رواه النسائي في «سننه الكبرىٰ» (١١٤٨٣)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٩٠٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٦).

ولا يزال هذا الشرك بين بعض الناس ممَّن يتعلقون بأشجار ويعتقدون أنها مباركة، ولهذا يذهبون ويعلقون عليها الخيوط، يتمسَّحون بها، يضع الواحد منهم صدره علىٰ الشجرة يطلب منها البركة، وقد يطوف حولها.

كان قديمًا، وقد أدرك المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ شيئًا من ذلك ورآه[1]، كانوا يطوفون علىٰ شجرة (نخلة)، تذهب المرأة التي تأخر عنها الزواج وتطوف عليها وتقول: (يا فحل الفحول أريد زوجًا قبل الحول)، لا تنجب لسنوات، فتقول لها النساء: هناك شجرة مباركة في المكان الفلاني، اذهبي وطوفي بها أشواطًا، واطلبي منها، فهي شجرة مباركة، وربما قالوا لها فلانة جربت وفلانة فعلت.. وهكذا يستدرج الناس إلىٰ الشرك والباطل -والعياذ بالله- فكن يذهبن إلىٰ تلك الشجرة ويطفن عليها، ويقلن ذلك.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوسٍ عَلَىٰ ذِي الخَلَصَةِ**»، وَذُو الخَلَصَة: طَاغِيَةُ دَوسٍ الَّتِي كَانُوا يَعبُدُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ[2].

«**تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ**»؛ أي: تضرب ألياتهن بعضًا من شدة تزاحمهن علىٰ الطواف علىٰ ذي الخَلَصة، وهذا فيه إشارة إلىٰ كثرة النساء الطائفات علىٰ ذي الخَلَصة.

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتىٰ تعبد قبائل من أمتي الأوثان**»[(١)]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة وثابتة عن نبينا ﷺ.

وقال ﷺ: «**لَتَتَّبِعنَّ سَنَن من كان قبلكم**»؛ تنبه هنا: مَن قبلنا فيهم من عبد الملائكة، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، وفيهم من عبد الأشجار، وفيهم من عبد الصالحين، ونبينا ﷺ قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبلَكُم شِبرًا بِشِبرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَو سَلَكُوا جُحرَ ضَبٍّ لَسَلَكتُمُوهُ**»[(٢)].

النبي ﷺ عندما قال لنا: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبلَكُم**» لم يقلها لنا مجرد معلومة نسمعها ونعرفها؛ بل من أجل أن نحذر ونحتاط لأنفسنا من هذا الباطل الذي كان عليه من قبلنا فنحذره ونحرص علىٰ مجانبته والبعد عنه.

ثم ختم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بحديث أبي واقد الليثي، وهذا حديث عظيم جدًّا في هذا الباب، يُبيِّن لنا خطورة حال الإنسان عندما يكون حديث عهدٍ بإسلام أو تكون معلوماته الإسلامية ضعيفة أو يكون نشأ في مجتمع تكثر فيه هذه المخالفات، فهنا فيه خطورة يُبينها ويُجليها لنا هذا الحديث؛ قال أبو واقد الليثي رضي الله عنه: «خرجنا مع النبيِّ ﷺ إلىٰ حُنَين ونحن حُدَثاء عهد بكفر»: هذا اعتذار قدَّمه رضي الله عنه من المقالة التي قالوها، قال: «ونحن حُدَثاء عَهد بكفر»؛ يعني: عهدنا بالكفر

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٣).
(٢) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

كان قريبًا، والذي علىٰ الكفر من وقت قريب معلوماته الشرعية عن الإسلام وعن التوحيد وعن تفاصيل الشرع تكون ضعيفة، وربما في الوقت نفسه تكون بعض الأمور التي كان عليها في الجاهلية لم يتبين له بعد، ولم يظهر له أنها مصادِمة للإسلام الذي اعتنقه ودخل فيه، ومثل هذا الأمر يحدث لمن ينشأ في مجتمعات تكثر فيها أمور الجاهلية، ويكثر فيها دعاة الضلال وأئمة الباطل؛ ربما ينشأ لا يعرف بعض الأمور ولا يفهمها ولا يدركها ويقع في الشرك والضلال من حيث أنه يظن أنه علىٰ التوحيد والإسلام، والله المستعان.

يقول أبو واقد ﷺ: «خرجنا مع النبي ﷺ إلىٰ حُنينٍ»، انظر من هم هؤلاء الرجال -هذه الكلمة مهمة- هؤلاء رجال خرجوا مع النبي ﷺ بائعين أنفسهم في سبيل الله، معهم السيوف يقاتِلون، منهم من سيُقتل ويموت في سبيل الله، ثم يقولون هذه المقالة التي بُيِّنت في الحديث.

قال ﷺ: «ونحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة، يَعكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم»: وهم في الطريق مرُّوا بسدرة؛ أي: مرُّوا بشجرة للمشركين، قال: «**يَعكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم**»، هذا نوع من الشرك؛ الشرك من أنواعه ومجالاته العكوف عند القبر أو عند الشجرة أو عند المكان الذي يُعبد ويُقصد ويُتَوجه إليه.

(**يعكف عنده**)؛ أي: يبقىٰ عنده مدة طويلة، ساكنًا خاضعًا متذلِّلًا راهبًا، هذه عبادة، ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، العكوف: عبادة لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، «**يعكفون عندها**»: يبقىٰ قائمًا ساعة، ساعتين، أقل

أو أكثر، ساكنًا خاشعًا، ربما لا يتكلم بكلمة، فقط مجرد وقوف، وهو يعتقد في قرارة نفسه أن عكوفه هذا يجلب له بركة؛ لأن هذه الشجرة مباركة فبركتها تنعكس عليه وتنجذب إليه ويعود إليه نصيب منها، فيعكفون عندها.

وأيضًا: «**ينوطون بها أسلحتهم**»؛ أي: يعلقون أسلحتهم؛ لأنهم يعتقدون أن السلاح إذا عُلِّق علىٰ هذه الشجرة المباركة -بزعمهم- بورك السلاح وأصبح قويًّا في القتال، فكانوا يعتقدون هذه العقائد الباطلة.

«**يُقال لها: ذات أنواط**»: لكثرة ما يُعلِّقون عليها من أسلحتهم -ينوطون؛ أي: يُعلِّقون- رجاء البركة وطلبها.

قال: «**فمررنا بسدرة** -أي مرُّوا بسدرة أخرىٰ غير تلك- **فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أَنوَاط كما لهم ذات أنواط**»؛ يعني اجعل لنا نحن، وخصِّص لنا شجرة معينة نمارس عندها مثل هذه الممارسة، نعكف ونعلق السلاح من أجل طلب البركة.

«فقال رسول الله ﷺ: **الله أكبر، إنها السُّنَن** -وفي رواية قال: **سبحان الله**-، **قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾** -ثم قال-: **لتتبعن سَنَن من كان قبلكم**».

انظر هذا النصح العظيم والتحذير البالغ من نبينا ﷺ، وخُذ نفسك مأخذ الحزم والحيطة والحذر، «**قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف:١٣٨]، **لتتبعن سَنَن من كان قبلكم شبرًا شبرًا، ذراعًا ذراعًا، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».

بل جاء عنه ﷺ في بعض الروايات في غير هذا الحديث: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسرَائِيلَ حَذوَ النَّعلِ بِالنَّعلِ، حَتَّىٰ إِن كَانَ مِنهُم مَن أَتَىٰ أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَن يَصنَعُ ذَلِكَ»[1].

يجب علىٰ الإنسان أن يحذر خاصة في زماننا هذا؛ هذا الزمن انفتح الناس انفتاحًا عجيبًا علىٰ حال المجتمعات الكافرة وأمم الشرك، وأصبح الناس من خلال القنوات الفضائية ومن خلال شبكة العنكبوت (الانترنت)، والإنسان جالس في بيته، والمرأة جالسة في بيتها ينفتح عليها العالم كله، وترىٰ وثنيَّة الوثنيِّين، وشرك المشركين، وضلال المضلين، وشُبه المبطلين، ويكون هذا المسكين الذي ينظر هذا كله بضاعته الشرعية وعلمه بالتوحيد علم ضعيف محدود، ثم يرجو لنفسه سلامة!

تَرجُو النَّجَاةَ وَلَم تَسلُك مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَمشِي عَلَىٰ اليَبَسِ

* * *

أَلقَاهُ فِي اليَمِّ مَكتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَن تَبتَلَّ بِالمَاءِ

فالشاهد: أن هذا الأمر جد خطير، وأن الأمر -كما قرر الشيخ رحمة الله عليه-: أن الشرك الذي كان عليه المشركون في زمن النبي ﷺ ليس عبادة أصنام فقط.

فبعض الناس عندما يقرأ الآيات التي فيها التحذير من الشرك يجعل في

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤١).

ذهنه فقط -وهذه من الشُّبه التي أُدرِجت علىٰ الناس-: اللَّات والعُزَّىٰ ومناة، ويقول: الحمد لله، هذه أصنام ليست موجودة وحُطِّمت في زمن النبي ﷺ ولا يوجد شرك، بل بعض الناس وُجد من أئمة الضلال أنه قال: (أمة محمد ﷺ إلىٰ قيام الساعة لن يوجد فيها شرك)! هذا قيل وكُتب في بعض الكتب ولُبِّس فيه علىٰ بعض الجُهَّال، وأصبحوا يمارسون ممارسات من الشرك ويقول لهم هؤلاء: أمة محمد ﷺ معصومة من الشرك، وربما استدلوا ببعض الأحاديث ووضعوها في غير بابها، مثل حديث: «**إِنَّ الشَّيطَانَ قَد أَيِسَ أَن يَعبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ وَلَكِن فِي التَّحرِيشِ بَينَهُم**»[1]، يستدلون بهذا الحديث ويتركون أحاديث محكمة صريحة في أن العبادة لغير الله ستكون في الأمة، كما سبق ذكره.

إذن لو قيل لك: هل سيوجد في أمة النبي ﷺ من سيعبد الملائكة، أو الأنبياء أو الصالحين، أو الأشجار والأحجار، أو الشمس والقمر؟

فالجواب: نعم؛ بدليلين:

الدليل الأول: أن هذه آيات بيِّنات في القرآن الكريم، وأن هذه الممارسات كانت موجودة فيمن كان قبلنا.

الدليل الثاني: أن نبينا ﷺ قال: «**لتتبعن سَنَن من كان قبلكم، شبرًا شبرًا، ذراعًا ذراعًا، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٢).

ولا يعني ذلك وجوده في الأمة بأسرها؛ بل يوجد في أفراد من الناس وآحاد منهم، وبعض من يضلون سواء السبيل، فيوجد فيهم هذا الانحراف.

فإذا علمتَ هذا العلم وفهمتَ هذا الفهم ودريتَ هذه الدراية اتقِ الله ﷻ، واحفظ توحيدك، وصُن إيمانك، وابعد نفسك عن الشرك.

❊ ❊ ❊

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

القاعدة الرابعة

أَنَّ مُشرِكِي زَمَانِنَا أَغلَظُ شِركًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشرِكُو زَمَانِنَا شِركُهُم دَائِمٌ؛ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

تَمَّت، وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح

ثم ختم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه القواعد بهذه القاعدة العظيمة، المهمة وهي قوله: «**أَنَّ مُشرِكِي زَمَانِنَا أَغلَظُ شِركًا مِنَ الأَوَّلِينَ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ**»: أي: وقت الصحة والعافية والأمن والراحة والطمأنينة ونحو ذلك يشركون، يعبدون مع الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- الأشجار والأحجار والملائكة... إلخ، أما وقت الشدة عندما تشتد الأمور وتعظم الكربات لا يعبدون شيئًا من تلك المعبودات، بل يتوجهون إلىٰ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وحده مخلصين له الدين، فهكذا كانوا.

«وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]»، فهذه حالة المشركين الأُوَل:

إذا ركبوا في الفلك، وأتت الرياح العاتية، وتلاطمت الأمواج، وأدركهم الغرق، وعظم فيهم الخطب؛ أخلصوا الدين لله، يقولون فقط: يا رب.. يا رب، لا يناجون اللات ولا هبل، ولا غيرهما مما كانوا يدعونها في حال الرخاء: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: إخلاصٌ تامٌّ في التوجه والسؤال والطلب، أما الوسائط فكلها تسقط وتذهب ولا يتعلقون بشيء منها، بل يُخلصون الدين لله وحده.

والدليل واضح أمامك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟﴾ -أي: المشركون- ﴿فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ يعني: إذا انتهوا من البحر ومشاكل الغرق وكانوا في البَر، وَطِئت أقدامهم اليابسة، رجعوا للشرك، وبدءوا ينادون اللَّات والعزىٰ... إلخ.

ولهذا؛ اقرأ في هذا السياق بيان الله ﷻ لهؤلاء: أن الله قادر عليهم في حال كونهم في البحر وفي حال كونهم في البر، الأمر سواء في قدرته -جَلَّ وَعَلَا-، وهو سبحانه قادر علىٰ إهلاكهم بَرًّا وبحرًا ، فيقال للمشرك: إذا كنت تؤمن بأنه لا ينجيك في البحر إلا الله، فكذلك لا ينجيك في البر إلا الله، لأن الله قادر عليك في البر وفي البحر، فما تغني عنك هذه الأصنام من الله شيئًا.

ولهذا اقرأ قول الله ﷻ: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٦-٦٧].

قوله تعالىٰ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: ذهب كل من تتعلقون به وتدعونه وترجونه، ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: إلا الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: تدل أن هذه الآية أن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، لكنهم في البحر كل من يعبدونه من دون الله يذهب عن قلوبهم وعن أفكارهم وعن توجهاتهم، فلا يعبدون إلا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وحده مخلصين له الدين.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ [الإسراء:٦٧-٦٨]، الآن وَطِئت أقدامكم البر وأحسستم بالسلامة والنجاة من كربات وشدة البحر ورجعتم إلىٰ الشرك، هل عندما رجعتم إلىٰ الشرك بعد أن وَطِئت أقدامكم البر، وأحسستم بالسلامة، هل أمنتم أن يخسف الله بكم جانب البر؟

إذن لماذا تعودون إلىٰ الشرك؟

أمر آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، هل تأمنون من ذلك؟

أي: وأنتم في البر فيه احتمالات؛ الأول: أن يخسف الله بكم جانب البر، الأرض التي تحتكم تنخسف، وتسقطون في هوة من الأرض لا يعلم مداها إلا الله، وتنطبق عليكم، ولا يُرىٰ لكم أثر؛ لأن الله ﷻ قادر علىٰ كل شيء، وقد أخبر أنه عاقب من عاقب بشيء من ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

احتمال آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أي: وأنتم في البر هل تأمنون أن الله ﷻ يبعث ريحًا شديدة قوية تحمل الحصباء فيهلككم وأنتم في البر؟

فهذا احتمال آخر ضعوه في بالكم.

أيضًا احتمال ثالث ذكره الله ﷻ: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء:٦٩].

هذه احتمالات ذكرها الله لهم:

* يُحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر خسفًا.

* ويُحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر ريحًا عاصفة تحمل الحصباء تهلككم.

* ويحتمل أن يعيدكم الله ﷻ فيما بعد إلىٰ البحر في حاجة من حاجاتكم وطلب من طلباتكم، ويرسل عليكم وأنتم في البحر خاسفًا من الريح فيغرقكم بما كفرتم.

إذن من تُخلصون له في الشدة، وتشركون معه في الرخاء حقه والواجب عليكم أن تكونوا مُخلصين له في الرخاء والشدة؛ لأنكم لستم في أَمَنة من عقوبته ونقمته، لا في البر ولا في البحر.

«كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًّا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده.

فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليَّ عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فَأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا.

فخرجوا من البحر، فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه -رضي الله عنه وأرضاه-»[1]، فكانت هذه الحادثة فيها العظة له والعبرة في دخوله في الإسلام ورجوعه للدين.

إذن أولئك كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ويقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما المشركون في زماننا فحالهم أنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة، أي أن حالهم عندما يركبون في الفلك ويعاينون شدة الغرق ومقاربة الموت يفزعون إلىٰ المعبودات التي تعلقت قلوبهم بها، ففي مثل هذه الحال تراهم يقولون: مدَد يا فلان، أدركنا يا فلان، إن لم تلحقنا في هذا من يلحقنا؟ إن لم تنقذنا من هذا الغرق، من الذي ينقذنا؟ يخاطبون أمواتًا! يخاطبون مقبورين! أنا عائذ بك، أنا ملتجئ إليك، أنا في جنابك... إلخ، في الشدة يفعلون ذلك، وهذا شرك ما كان المشركون يفعلونه في حال الشدة.

وقد ذكر بعضهم أن جماعة كانوا في سفينة وأدركهم الغرق، فأخذ كلٌّ يهتف بمعبوده: مدد يا فلان، ألحقنا يا شيخ فلان، أدركنا يا فلان.. وينادون، كلٌّ ينادي شيخه أو معبوده، فكان فيهم رجل مسن علىٰ الفطرة والتوحيد، التفت فإذا كل مَن علىٰ السفينة لا ينادون إلا هذه المعبودات، ليس فيهم من ينادي الله، فمدَّ يديه وقال: يارب! أغرق.. أغرق ما علىٰ السفينة من يعبدك، فإن كل من علىٰ السفينة متجهون إلىٰ غيرك.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٩٦).

فهؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة -والعياذ بالله-؛ لأن من وراء ذلك أئمة الضلال وشيوخ الباطل، غرسوا في نفوس هؤلاء التعلق بهم، وقالوا لهم -كما هو واضح في كتب بعضهم-: إذا أدركتَ الكربة، وعاينتَ الشدة في أي مكان، فاهتف باسمي وستراني بجنبك، حتىٰ بعد موتي لا تنسَ ذلك؛ فإني أخرج إليك وآخذ بيدك.

وكتب هؤلاء كتبًا يعددون كراماتهم -زعموا-، فيقولون ويتداولون أن من كراماتهم أنه كان ينقذ السفن في البحر من الغرق.

والعوام يسمعون مثل هذه القصص ويصدقونها وترسخ في قلوبهم، ثم إذا ركبوا في الفلك يغلظ شركهم علىٰ شرك المشركين الأُوَل، فتجده إلىٰ أن يغرق، إلىٰ أن يموت، وهو ينادي شيخه ويهتف باسم شيخه -والعياذ بالله- علىٰ الشرك بالله -نسأل الله العافية والسلامة-.

والله إنها حالة مؤلمة جدًّا ومؤسفة، تفارق روحه الحياة وهو لا يزال يظن أن شيخه سيأتي ليدركه وينقذه؛ لا يعبد الله ولا يخلص لله حتىٰ في شدته.

وهذه المسائل والتوسع فيها والرد علىٰ الشُّبه التي يطرحها أهل الشرك والباطل توسع فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابٍ له معروف، اسمه: «**كشف الشبهات**»[1]،

---

(١) **قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر -حفظه الله-**: «اسم الكتاب مُطابقٌ لموضوعه، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد فيه الشبهات التي ذكرها أهلُ البدع، ملبِّسين بها علىٰ الدعوة إلىٰ الحقِّ والصراط المستقيم، ومخالفين فيها لِما كان عليه سلف هذه الأمَّة من الصحابة ومَن سار علىٰ نهجهم، وذلك بتعلُّقهم بالأولياء والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يَدعونهم =

وهو كتاب مهم جدًّا، لا يستغني عنه طالب العلم، ذكر فيه هذه القواعد مفصلة تفصيلًا أوسع من هنا، وذكر أيضًا أصولًا أخرىٰ، و تقعيدات وتأصيلات يحتاج إليها المسلم في كشف شبهات أهل الشرك والباطل.

فنسأل الله ﷻ أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء علىٰ هذا النصح العظيم، والبيان الموفق والإيضاح للتوحيد والتحذير من الشرك الذي كان هو شغله الشاغل -رحمة الله عليه- في حياته، فنفع الله ﷻ بدعوته نفعًا عظيمًا، ولا يزال الناس مع مر الأيام يستفيدون من هذه الدعوة، ويستفيدون من هذا النصح، ويستفيدون من هذه الآيات والحجج والبيِّنات التي جمعها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاستفاد من ذلك خلق كثير، واهتدىٰ أقوام كثر، وكتب الله ﷻ لهم الهداية، ولله الحمد.

ثم ختم -رحمه الله تعالىٰ- الرسالة بقوله: «**تَمَّت وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم**»: يوجد في بعض المجتمعات من يصدون الناس عن دعوته، حتىٰ إن بعضهم قيل له -كما ذكر لنا بعضهم ذلك- في التحذير من الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يصلي علىٰ النبي ﷺ! ويصدق الواحد منهم هذا الكذب، والله المستعان.

=

ويَستغيثون بهم، فجمع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جُملًا كبيرة من هذه الشُّبَه، فيذكر الشبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلًّا علىٰ ذلك بنصوص الكتاب والسنَّة وما كان عليه سلف الأمَّة، وكتابه هذا متمِّمٌ لكتبه الأخرىٰ في العقيدة، التي أوضح فيها ما يجب اعتقاده وفقًا لنصوص الكتاب والسنَّة، فإنَّه بهذا الكتاب أجاب علىٰ ما يُورَد علىٰ العقيدة الصحيحة من شبهات، مبيِّنًا بطلانها ومخالفتها للحقِّ والهدىٰ الذي كان عليه سلف هذه الأمَّة». «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص٢٦).

وهذه كتبه شاهدة علىٰ حبِّه واستدلاله بالنبيﷺ[1].

ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة المباركة بقوله: «تَمَّت وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم».

فجزاه الله خيرًا علىٰ ما قدَّم، وأعلىٰ درجاته، ورفع موازينه في عليين، وجمعنا به أجمعين وبالصالحين من عباده وبأنبيائه وأوليائه في جنات النعيم، وهدانا صراطه المستقيم، وأصلح لنا جميعًا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا جميعًا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا.

ونسأله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل

---

(١) وقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته: «أُشهد الله ومن حضرني من الملائكة، وأشهدكم: أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة... وأومن بأن نبينا محمدًاﷺ خاتم النبيين والمرسلين، ولا يصح إيمان عبد حتىٰ يؤمن برسالته، ويشهد بنبوته...». «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٣٢).

قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر -حفظه الله-: «وتعجبني قصة لأحد الفضلاء، وهو الشيخ ثاني المنصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الجبيل في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية سمعتها ممن سمعها منه مضمونها: أنه زار إحدىٰ الدول التي فتن بعض أهلها بالبناء علىٰ القبور والغلو في أصحابها، فلقي جماعة في مسجد فيه قبر لمزوه وأهل بلده بأنهم لا يحبون الرسولﷺ، فقال لهم: هل في بلادكم حانات للخمور وأماكن للعهر والفجور؟ قالوا: نعم كثيرة!، فقال: إن بلادنا ليس فيها ولا محل واحد، وقال لهم أيضًا: ما حكم الصلاة علىٰ النبي ﷺ عندكم في الصلاة؟ قالوا مستحبة، قال: فإنها عندنا ركن، إذا لم يأت بها المصلي في صلاته، لا تصح صلاته، فمن يكون الأولىٰ إذن بمحبة الرسولﷺ؟». «شرح شروط الصلاة وأركانها وواجباتها» (ص٨٣).

شر، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

أسأل الله أن يهدينا، وأن يهدي بنا، وأن يهدي لنا، وأن يجعلنا من عباده المهتدين.

وصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّم عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ أَجمَعِين.

* * *

الفهرس

فهرس الموضوعات

مُقَدِّمَةُ المعتني ٥

مُقَدِّمَةُ الشَّارِح ٩

مُقَدِّمَةُ شَيخ الإِسلَام مُحَمَّد بن عَبد الوَهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ ١٣

الحَنِيفِيَةُ مِلَّةُ إِبرَاهِيم ٢٨

العِبَادَةُ لَا تُسَمَّىٰ عِبَادَة إِلَّا مَع التَّوحِيد ٣٣

الشِّرك أَهم مَا يَجِبُ عَلَىٰ العَبدِ مَعرِفَته ٣٧

القَاعِدَةُ الأُولَىٰ: أَن تَعلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الخَالِقُ المُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَم يُدخِلهُم فِي الإِسلَامِ ٤٣

القَاعِدَةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُم يَقُولُون: مَا دَعَونَاهُم وَتَوَجَّهنَا إِلَيهِم إِلَّا لِطَلَبِ القُربَةِ وَالشَّفَاعَةِ ٥٣

القَاعِدَةُ الثَّالِثَة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَىٰ أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِم: مِنهُم مَن يَعبُدُ المَلَائِكَةَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الأَنبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ

الأَحجَارَ وَالأَشجَارَ، وَمِنهُم مَن يَعبُدُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ، وَقَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَم يُفَرِّق بَينَهُم ٦٦

القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مُشرِكِي زَمَانِنَا أَغلَظُ شِركًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ وَيُخلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشرِكُو زَمَانِنَا شِركُهُم دَائِمًا فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ.. ٩١

الفهرس.. ١٠١

❊ ❊ ❊